الفصل الأول
ازدهار الحياة الثقافية والمؤسسات التعليمية

الفصل الأول

ازدهار الحياة الثقافية والمؤسسات التعليمية

أولاً: عوامل تقدم الحياة الثقافية:

١ - اهتمام أهل إقليم الصغد بالعلم

حث الإسلام على طلب العلم ودعا إلى تحصيله، وجاءت أول الأوامر الإلهية التى تلقاها الرسول ﷺ تحض على العلم وفضله، فافتتح رب العزة وحيه للرسول بقوله "اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذى خلَق، خلَقَ الإنسَانَ منْ علَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ، الَّذى علَّمَ بالْقَلَمِ، علَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ"(١) وقال عز وجل "شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٢) "وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا"(٣).

رفع الإسلام الحنيف من قدر العلم والعلماء وخص الله تعالى العلماء بالعديد من الآيات التى ترفع من قدرهم وتجلهم. ومن تلك الآيات قوله تعالى "قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ(٤)" يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا منكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٥)" وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ(٦)

---

(١) العلق: آية ١ـ٥

(٢) آل عمران: آية ١٨

(٣) النساء: آية ١١٣

(٤) الزمر: آية ٩

(٥) المجادلة: آية ١١

(٦) العنكبوت: آية ٤٣

"وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا"[1] تعددت الآيات القرآنية التى تشيد بالعلم وترفع قدره، ونوه فى مواطن كثيرة بمنزلة العلماء الرفيعة وأهمية العلم وطلبه. وورد العلم ومشتقاته فى نحو تسعمائة موضع فى القرآن الكريم، ويكفى تعظيم الله للعلم أن يكون من اسمائه الحسنى: عالم، عليم، علاّم [2].

نرى من خلال آيات القرآن الكريم ما للعلم والعلماء من أهمية كبيرة فى الدعوة إلى الله والتحرر من عبودية ما سواه، ومن ثم فأهل العلم هم مصابيح الدجى وأعلام الهدى وسادة البشر وخيار الأمم الذين فهموا غرض البارى تعالى منهم، وعرفوا الغاية المنصوبة لهم[3].

حث رسول الله ﷺ على طلب العلم وبين منزلة العلماء فى قوله ﷺ "من سلك طريقا يطلب به علما سهل الله له طريقا إلى الجنة[4]. وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم[5] " من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين "[6] وقوله ﷺ: "إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا. وإن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يترك عالما اتخذ الناس رؤسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا". [7] والأحاديث الشريفة الدالة

---

(١) طه: آية١١٤

(٢) رحيم كاظم محمد الهاشمى وعواطف محمد شنقارو: الحضارة العربية الإسلامية، القاهرة، ص١٤.

(٣) أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسى: طبقات الأمم، ص١٢

(٤) البخارى: صحيح البخارى، مج١، دار مطابع الشعب، ص٢٦، ٢٧

(٥) ابن ماجة: سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، جـ١، ط٣، دار الريان، ص٨١.

(٦) البخارى: المصدر نفسه، ص٢٧

(٧) مسلم: صحيح مسلم بشرح النووى، جـ١٦، مج٨، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٢٢١-٢٢٤.

على فضل العلم والتعلم كثيرة وكلها مصابيح تضئ للمسلمين معالم الطريق. ولم يفرق الإسلام فى حرصه على التعليم بين الأبناء والبنات فقال ﷺ "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة"(١).

هكذا أقبل المسلمون الأوائل على العلم بدافع من إيمانهم واستجابة لدعوة القرآن الكريم لهم، رغبة منهم فى أن يساعدهم علمهم هذا على التعمق فى إيمانهم والتقرب إلى ربهم، مما يمكن أن يطلق عليه الإيمان يدعو إلى العلم كما أن العلم يدعو إلى الإيمان(٢) فكان من الطبيعى أن يهتم أهل الصغد بتشجيع العلم والعلماء، فهم أهل حضارة عريقة ورثوا الحضارة الفارسية وتأثروا بالحضارة الصينية(٣). واشتهر أهل مدن الصغد بميلهم إلى العلم وتشجيعه وشغفهم الدائم بالاطلاع والدراسة وحبهم للرحلة فى سبيل العلم، حتى صار الإقليم قبلة يؤمها العلماء ويقصدها الأدباء من شتى البقاع.

كانت سمرقند عاصمة الصغد ذات أهمية عظمى إذ كانت مركزاً إسلاميًا وعلميًا قامت بتأدية رسالة الإسلام وخدمته على أحسن وجه، وكان لعلمائها أفضل نصيب فى نشر العلوم الإسلامية فى ربوع الأرض، ويكفى لفخرها وفضلها أنها زخرت بالكثير من العلماء الكبار(٤) أمثال الفقيه أبى حفص نجم الدين عمر بن محمد النسفى السمرقندى (ت٥٣٧هـ / ١١٤٢م)(٥) صنف فى

---

(١) ابن ماجة: المصدر نفسه، ص٨١.

(٢) بول غليونجى: موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين، جـ١، مؤسسة المعارف، بيروت، ص٥

(٣) Saunders, The History of the Mongol Conquests ,p72

(٤) حسين مؤنس: المساجد، الكويت، ١٩٨١م، ص٢٨٣ .

(٥) Goldziher ,A Short History of Classical Literature,Translated by Joseph Desomogyi ,Germany,1966,p53. Paul , The Histories of Samarqand , Studia Iranica ,Tome, 22, no,1, 1993

شتى العلوم، فى التفسير والحديث والفقه[١]، والفقيه المناظر أبى الحسن على بن موجود بن الحسين بن الحسن بن محمد بن إبراهيم بن العباس النظرى الكشانى (ت٥٥٧هـ/ ١١٦١م)[٢]، فضلا عن أحمد بن عمر بن على العروضى السمرقندى مصنف كتاب مجمع النوادر المشهور بجهار مقالة - المقالات الأربع - وهو من كُتاب القرن السادس الهجرى[٣]، وظهير الدين محمد بن على السمرقندى الكاتب صاحب كتاب سندباد نامه[٤]، ونجيب الدين السمرقندى الطبيب المشهور(ت٦١٩هـ/ ١٢٢٢م) من مصنفاته الأدوية المفردة، وأصول التراكيب فى الطب، والأسباب والعلامات[٥].

---

(١) ابن قطلوبغا: تاج التراجم فى من صنف من الحنفية، تحقيق إبراهيم صالح، بيروت، ١٩٩٢م، ص١٦٣.

(٢) السمعانى: التحبير فى المعجم الكبير، تحقيق منيرة ناجى سالم، جـ١، بغداد، ١٩٧٥، ص٥٩٢.

(٣) كيانوش مايلى: نظرى اجماعى بر تاريخ أدبيات فارسى به انضمام كتابشناسى كزيده، متون أدب فارسى از قرن جهارم تا قرن جهاردهم هجرى، تهران، ١٣٧٣، ص٢٦.

Morrison , History of Persian Literature from the Beginning of the Islamic Period to the Present day ,Brill ,1981,p14.Mousavi with Hillenbrand, Mousleums of Poet and Mystics,Islamic Period,vol.2,London , 2001,p195. Arbery, Three Persian poems Iran ,Journal of the British Institute of Persian studies ,vol.2,1964.p6.

(٤) محمد عوفى: لباب الألباب، تعليق سعيد نفيسى، ١٣٣٥، ص ٨٦.

Davidovich ,The Karakhanids History of civilization of central Asia ,vol.4, .p133

(٥) أحمد بيرشك: كارنامه بزركان إيران، ١٣٤٠، ص٣٧٥. إسماعيل باشا البغدادى: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، جـ٢، أستا نبول، ١٩٥٥م، ص١١٠.

Martin Levey, Early Arabic Pharmacology ,An Introduction Based on Ancient and Medieval Sources Belgium, 1973,p35

٢ - تشجيع الحكام للعلم والعلماء

شجع الخلفاء والسلاطين ورجال الدولة أهل العلم وأكرموهم، واعتبروا أنفسهم حماة ورعاة للعلم والثقافة، وأن من واجبهم تشجيع العلماء وتوفير أسباب الراحة والجو العلمى لهم ليساهموا فى تقدم الأمة الإسلامية[١].

اهتم السلاجقة بالعلم والعلماء، فكان السلطان ملكشاه والوزير نظام الملك[٢] يعتبران من أنشط حكام السلاجقة فى رعايتهما للعلم وأصحابه[٣]، وبذل نظام الملك جهدا واضحا فى تشجيع العلماء والأدباء، وكان محبا لأهل العلم، كثير الإحسان إليهم حتى أنه جعل رواتب ثابتة لاثنى عشر رجلا من رجال العلم فى مختلف أنحاء الدولة الإسلامية[٤] وكانت مجالسه عامرة بالفقهاء والعلماء والأدباء، وكان نافذا بصيرا، فمن تفرس فيه صلاحية الولاية ولاه، ومن رآه مستحقا لرفع قدره رفعه، ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه ورتب له ما يكفيه حتى ينقطع إلى إفادة العلم ونشره[٥]، ويؤكد ذلك موقفه مع

---

(١) رحيم كاظم محمد الهاشمى وعواطف محمد شنقارو: الحضارة العربية الإسلامية، ص١٥٨.

(٢) نظام الملك: هو الحسن بن على بن إسحاق وزير السلطان ألب أرسلان وابنه السلطان ملكشاه، ولد بطوس ٨ - ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م، وتأدب بآداب العرب، وقرأ القرآن والحديث واللغة والنحو، وترقى حتى وصل إلى منصب الوزارة، وكانت أيامه دولة أهل العلم، اغتاله ديلمى من الإسماعيلية على مقربة من نهاوند سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م. ميرخواند: روضة الصفا فى سيرة الأنبياء والملوك والخلفا، ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلى، القاهرة، ١٩٨٨م، ص٢٦٥. مصطفى صدرى: شرح حال رجال ومشاهير نامى إيران، جاب أول، تهران، ١٣٧٤، ص٢٤٨

(٣) حسين أمين: تاريخ العراق الاقتصادى، ص٢٧٥

(٤) محمد مسفر الزهرانى: نظام الوزارة فى الدولة العباسية، مؤسسة الرسالة. بيروت، ١٩٨٠م، ص١٨٩. مصطفى صدرى: المرجع نفسه، ص٢٥٥.

(٥) البندارى: تاريخ دولة آل سلجوق، ص٥٩. السبكى: طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق=

أبى القاسم على بن المظفر بن زيد بن حمزة بن محمد العلوى الحسينى بن أبى يعلى الدبوسى (ت٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م) الذى كان من كبار أئمة الشافعية متوحدا متفردًا فى الفقه، ولاه الوزير نظام الملك التدريس بنظامية بغداد بعد نجاحه أغلب الظن فى المناظرة التى عقدت بينه وبين أبى المعالى الجوينى إمامه فى أصبهان وتفوقه فيها على منافسه(١).

بينما كان نظام الملك يقضى مع العلماء غالب نهاره، فقيل له إن هؤلاء شغلوك عن كثير من المصالح، فقال: "هؤلاء جمال الدنيا والآخرة، ولو أجلستهم على رأسى لما استكثرت ذلك"(٢) وكان عبد الله بن أحمد بن السمرقندى (ت٥١٦هـ/ ١١٢٢م) من كبار المحدثين وأفاضل المتقنين والأدباء، كان يقرأ للوزير نظام الملك على الشيوخ ويفيد عنهم(٣).

جدير بالذكر أن نظام الملك كان بعيد النظر، فكان يعلم حق العلم وما لرجال العلم من أثر كبير فى المجتمع بوجه عام وفى صفوف العامة بوجه

=محمود محمد الطناحى وعبد الفتاح محمد الحلو، جـ٤، القاهرة، ١٩٦٤م، ص٣١٣. نظام الملك: سياست نامه، ترجمة السيد محمد العزاوى، دار الرائد العربى، ص٥. عبد المجيد بدوى: التاريخ السياسى والفكرى للمذهب السنى، ط٢، دار الوفاء، ١٩٨٨م، ص١٨٠.

(١) ابن الاثير: اللباب فى تهذيب الأنساب، جـ١، ص٤٩٠. ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص١٢٩. ابن الجوزى: المنتظم، جـ٩، ص٥٠. الذهبى: تاريخ الإسلام، جـ٣٣، ص٩٢، ٩١. الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ١٩، ص٩١ - ٩٣. السبكى: طبقات الشافعية الكبرى، جـ٥، ص٢٩٧، ٢٩٦. ابن الصلاح الشهرزورى: الفقهاء الشافعية، تحقيق محيى الدين على نجيب، جـ٢، بيروت، ١٩٩٢م، ص٨١٨. ابن كثير: طبقات الفقهاء الشافعيين، تحقيق أحمد عمر هاشم ومحمد زينهم، جـ٢، ١٩٩٣م، ص٤٨٣.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص١٤٠.

(٣) الذهبى: المختصر المحتاج إليه للدبيثى، جـ١، بيروت، ١٩٨٥م، ص٩.

خاص، وبتقرب نظام الملك إلى العلماء وتقريبهم إليه، يكون بذلك كسب مودتهم ورضاهم، وهذا يعنى أنه امتلك السلاح القوى المؤثر الذى ضمن له عامة الناس، فخطباء المساجد وأئمة الصلاة والوعاظ والمدرسون كانوا ألسنة تلهج بذكر نظام الملك وأعماله، وتعمل على نشر ما يقربه ويحببه إلى الناس[١] ومن ثم امتاز عصر نظام الملك بوفرة علمائه وأدبائه وشعرائه وانصرفوا إلى تأليف الكتب ونظم الأشعار فى مدحه والإشادة بفضله، وهذا بالطبع ساعد على رواج سوق العلم وازدهار الثقافة فى العصر السلجوقى. هكذا تمتع العلماء بمكانة كبيرة فى عهد السلاجقة وخاصة ملكشاه ووزيره نظام الملك.

وكان من عادة السلاجقة أن يسيروا خلف الموتى مطأطئو الرءوس حتى إذا ما واروه التراب ارتدوا من أجله الملابس السوداء وشارات الحداد، وتخرج الجنائز ومعها الطبول والنوائح، وخاصة عند وفاة رجال العلم[٢]، ومنهم على سبيل المثال الإمام أبو طاهر عبد الرحمن بن أحمد بن علك الساوى الشافعى (ت٤٨٤هـ/ ١٠٩١م) أحد أئمة الفقه المشهورين، تفقه بسمرقند وصحب عبد العزيز النخشبى وأخذ عنه علم الحديث، رحل فى طلب العلم إلى العراق، وشيع نظام الملك جنازته وجمع من الأكابر، قال شيوخ عصره لم ير فقيه فى وقته انصف منه[٣].

وكذلك كان السلطان سنجر يحترم علماء الدين احتراما كبيرا ويتقرب إليهم، ويميل إلى الزهاد، ويجمع حوله الشعراء ويغدق عليهم، فأزداد عدد

---

(١) حسين أمين: تاريخ العراق الاقتصادى، ص٢٧٦.

(٢) محمد محمود إدريس: رسوم السلاجقة، دار الثقافة، ١٩٨٣، ص١٦٠

(٣) الاسنوى: طبقات الشافعية، جـ١، دار الكتب العلمية. بيروت، ١٩٨٧م، ص٣٣١، ٣٣٠. ابن الجوزى: المنتظم، جـ٩، ص٥٩، ٥٨. الذهبى: تاريخ الإسلام، جـ٣٣، ص١٢٨، ١٢٧. النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، تحقيق يوسف الهادى، مؤسسة الطباعة والنشر، ١٩٩٩، ص٣٦٤.

الأدباء من كتاب الشعر والنثر[1] وتم خلال عصره تأليف عدد كبير من أمهات الكتب، كما عاصره عدد من كبار شعراء سمرقند أمثال عمعق البخاري(ت٥٤٣هـ/ ١١٤٨م)، ونظامي عروضي السمرقندي صاحب كتاب جهار مقاله، وسوزني شاعر الهجاء، ورشيدي، وشطرنجي السمرقندي[2].

اهتم خوارزمشاه محمد بن تكش(٥٩٦ - ٦١٧ هـ/ ١١٩٩-١٢٢٠م) بتشجيع العلم والعلماء وأسبغ رعايته عليهم، فقرب إليه الإمام فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين الرازي (ت٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م) نزيل سمرقند، ورفع منزلته وأسنى رزقه[3].

حذا حكام الأقاليم وكبار رجال الدولة وبالأخص القراخانيون حكام إقليم الصغد في العصر السلجوقي حذو السلاطين في تشجيع العلم والعلماء، فكانوا يجزلون العطاء للعلماء، كما أحاطوا أنفسهم بنخبة من الأدباء والشعراء الذين نظموا القصائد لمدحهم، ولم يقف دورهم عند حد التشجيع بل كان من بين حكام وأمراء هذه الأسرة من نبغ في الأدب والشعر، ومنهم الأمير علي بوري تكين، كان من أشهر الشعراء في القرن الخامس الهجري، ومن مصنفاته ترجمان البلاغة وحدائق السحر، وكان والده بوري تكين أبو إسحاق إبراهيم بن نصر حاكما على سمرقند وبخارى[4].

---

(١) الراوندي: راحة الصدور، ص٢٦٠ .أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة، ص٥٥. فخري هروي: تذكرة روضة السلاطين، تصحيح خيامبور، تبريز، ١٣٤٥، ص١٤.

(٢) براون: تاريخ الأدب العربي في إيران، ص٣٧٣ . ذبيح الله صفا: دور نمايي از فرهنك ايراني واثر جهاني آن جلوه هائي از هنر ايران در تمدنهاي ديكر، تهران، ١٣٧٥، ص١٢٤ . رضا مصطفوي سبزواري: سهم زبان فارسي وفارسي زبانان در تمدن جهاني، مجلة اشنا، شماره سيزدهم، سال سوم، ١٣٧٢، ص٥٢.

(٣) القفطي: أخبار العلماء باخبار الحكماء، القاهرة، ص١٩٠ .

(٤) ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد ٢،ص٨. ذبيح الله صفا: دور نمايي ازفرنك إيراني واثر جهاني آن جلوه هائي ازهنر إيران در تمدنهاي ديكر، ص١٢٤.

اشتهر طمغاج خان إبراهيم (ت ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م) بتدينه الشديد، وكان والده نصر من الزهاد، حاكما على سمرقند، ولما مات قام مقامه ابنه طمغاج هذا الذى اشتهر بشدة ورعه، فكان لا يأخذ مالا من أحد حتى يستفتى الفقهاء[١]، وبلغ من توقيره لرجال الدين أنه لما قال له الخطيب أبو شجاع أحد سلالة العلويين: " أنت لا تصلح للملك " أغلق الخان أبواب قصره وعزم على التنازل عن العرش، ولكن الأهالى أفلحوا فى إقناعه بأن الخطيب أخطأ، وأن ألفاظه تتعارض مع ما يبذله الخان من جهد من أجل رعيته[٢]. كما حرص طمغاج خان على إرضاء الخليفة العباسى، فكان يرسل كل سنة رسولا إلى الخليفة القائم بأمر الله، وحصل على ألقاب من دار الخلافة، منها عماد الدولة وتاج الملة[٣]، واتجهت عناية طمغاج خان إبراهيم منذ البداية إلى تثبيت قواعد النظام والأمن بأراضيه، فكان أدنى اعتداء على أملاك الغير يلقى جزاء صارما، كما اتجهت عناية طمغاج خان إلى الأدب وخاصة الشعر[٤].

وكان السلطان شمس الملك نصر بن إبراهيم بن نصر (ت٤٧٢هـ/ ١٠٨٠م) صاحب بلاد ما وراء النهر من أفاضل الملوك علما ورأيا وحزما وسياسة. درس الفقه فى الدار الجوزجانيه، وأملى الحديث وخطب على منبرى سمرقند وبخارى، وكان فصيحا[٥]، وكان يقدر العلماء ويحترمهم

(١) ابن الفوطى: مجمع الآداب، مج٢، طهران، ١٩٩٥م، ص٨. عبد العظيم رضايى: تاريخ ده هزار ساله إيران، از سلسله غزنويان تا انقراض صفويه، جلد ٣، جاب بنجم، جاب اقبال ومروى، ص٥٢.

(٢) بارتولد: تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، ص٤٥٩.

(٣) ابن الفوطى: تلخيص مجمع الآداب فى مجمع الألقاب، تحقيق مصطفى جواد، جـ٤، دمشق، ١٩٦٢، ص٦٥٠.

(٤) محمد كامكار بارسى: رباعى ورباعى سرايان، تهران، ١٣٧٢، ص١٦٨.

(٥) الاسنوى: طبقات الشافعية، جـ٢، ص٢٢٤. الصفدى: الوافى بالوفيات، جـ٢٧، بيروت، ١٩٩٧، ص٤٩. الزركلى: الأعلام، جـ٨، ط٧، دار العلم. بيروت، ١٩٨٦، ص٢٠.

Michal Biran ,Ilk -khanids,Encyclopedia Iranica, vol.12,New York,2004,p625

ويجزل لهم العطاء ويقربهم إليه، فكان يجلس عمر الخيام معه على سرير الملك إجلالا لعلمه وتشريفا للعلم فى شخصه[1].

وبلغت الدولة فى عهد الخضر الذى خلف أخاه شمس الملك سنة (ت٤٧٣هـ/ ١٠٨١م) أقصى درجات الرخاء وامتد سلطانه على جميع بلاد ما وراء النهر، واتصف حكمه بالعدل وكان راعيا للشعراء مجزلا العطاء لهم. ومن الشعراء الذين قاموا بمدحه وبلغوا شهرة عظيمة فى بلاطه عمعق بخارائى، وسيد الشعراء رشيدى سمرقندى، ونجيبى فرغانى، وساغرجى[2].

كذلك كان قلج طمغاج خان محبا للعلم والعلماء، ألفت باسمه بعض الكتب، منها "تاريخ ملوك تركستان" لمجد الدين محمد بن عدنان، و"سندباد نامه" لبهاء الدين الظهيرى[3] ونال هذا الحاكم من مدائح السوزنى ما لم ينله ممدوح آخر، ويبدو أن الصلة بينهما كانت قوية جدا، إذ مدحه بما يزيد عن خمس عشرة قصيدة مدحية[4].

---

(١) محمد غريب جودة: عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية فى العلوم الطبيعية والطب، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص١٨٦.

(٢) سعيد نفيسى: تاريخ نظم ونثر در إيران، جلد أول، ١٣٤٤، ص٩٧، ٩٦. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد ٢، ص٩. ذبيح الله صفا: دور نمايى از فرنك إيرانى واثر جهانى آن جلوه هائى از هنر إيران در تمدنهاى ديكر، ص١٢٤. ذبيح الله صفا: عمعق بخارائى، مجلة مهر، شماره ٤، سال سوم ١٣١٤، ص٤٠٥. رضا مصطفوى سبزوارى: سهم زبان فارسى وفارسى زبانان در تمدن جهانى، مجلة اشنا، شماره سيزدهم، سال سوم، ١٣٧٢، ص٥٢.

(٣) العروضى السمرقندى: جهار مقاله، ص١٤٤. محمد كامكار بارسى: رباعى ورباعى سرايان، ص١٦٨.

(٤) محمد محمد يونس: السوزنى السمرقندى وشعره الجاد، دراسة تحليلية نقدية، ط٢، القاهرة، ١٩٨٩، ص٣٩.

ومما يجدر الإشارة إليه أن رعاية العلم والعلماء لم تكن قاصرة على الحكام وحدهم، بل كان للقضاة دورهم البارز، فكان القاضى أبو الحسن على بن الحسين بن محمد السغدى إماما فاضلا مناظرا. سمع جماعة من العلماء وتوفى سنة (٤٦١هـ/ ١٠٦٨م)[١] ومحمد بن أحمد بن الفرج أبو منصور بن الدقاق الوكيل - المحامى - بباب القضاة سمع الحديث بإفادة خاله محمد بن ناصر بن أحمد بن محمد بن المحاملى وعبد الله بن أحمد بن السمرقندى، وحدث عنهما وكان ثقة صحيح السماع توفى سنة (٥٧٥هـ / ١١٧٩م)[٢].

هكذا حظيت مدن إقليم الصغد بعدد وافر من الشعراء المادحين، وكان جزء كبير من قصائدهم مرتبطة بخاقانات ما وراء النهر وخصوصًا الخاقان العظيم خضر بن إبراهيم .

وكانت اللغة العربية فى المرتبة الأولى من الناحية الأدبية حتى أواخر القرن الثالث الهجرى. ثم أخذت القومية الفارسية تنهض، وتحاول أن تحى معها اللغة الفارسية الحديثة التى اعتمدت على اللغة العربية فى كثير من كلماتها واصطلاحاتها والتى تكتب أيضا بالحروف العربية[٣].

بدأت اللغة الفارسية تنافس اللغة العربية فى التأليف وسار الأدب الفارسى بجانب الأدب العربى[٤]، ومع ذلك ظلت اللغة العربية فى مدن

---

(١) السمعانى: الأنساب، جـ٣، ص٢٥٩.

(٢) الذهبى: المختصر المحتاج إليه للدبيثى، جـ١، ص٩ .

(٣) محمد نور الدين عبد المنعم: دراسات فى الشعر الفارسى حتى القرن الخامس الهجرى، القاهرة، ١٩٧٦م .ص١٤. نور الدين آل على: دروس اللغة والأدب الفارسى، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٨، ص١٦

Frye, The Golden age of Persia,,p232

(٤) محمود فهمى حجازى: اللغة العربية عبر القرون، ط٢، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٨، ص٥٧=

إقليم الصغد فى القرن الخامس الهجرى لغة الثقافة والنتاج الفكرى، وفى قوالبها صب المفكرون ورجال الدين والفقهاء والكتاب والأدباء عصارة أفكارهم ونتاج قرائحهم دون مبالاة منهم بأصلهم الفارسى ووعيهم القومى النابض. وظلت العربية كذلك لغة الكتابات السلطانية لدى كثيرمن البيوت الشرقية(١).

وما أن ظهر السلاجقة على مسرح السياسة حتى التف حولهم بعض الشعراء والأدباء فنضج الأدب الفارسى فى فترة حكم السلاجقة ووصل إلى أوج ترقيه(٢). فتعد فترة حكم السلاجقة من الفترات الأدبية الإيرانية المتقدمة من حيث كثرة الشعراء والكتاب الفرس، وأشهرهم السوزنى ورشيدى سمرقندى وعمسق وظهيرى الدين سمرقندى وغيرهم الكثير(٣). كما كثرت المؤلفات فى العلوم المختلفة باللغتين العربية والفارسية فى العصر السلجوقى. وكان العلماء والأدباء والشعراء يحرصون فى إنتاجهم على إظهار ثقافتهم الواسعة وإلمامهم بأطراف من مختلف العلوم والفنون الرائجة فى عصرهم لإثبات نبوغهم وتفوقهم، وصارت هذه الظاهرة واضحة فى هذا العصر(٤).

وفى الواقع كانت اللغة العربية واللغة الفارسية وعائين يحويان كنوز وثقافات الحضارة البشرية، واستخدم العلماء فى إقليم الصغد كلا من اللغة

=Julie Scott Meisami, Medieval Persian Court Poetry,New Jersey,1987,p10. Bosworth, The Heritage of Rulership in Early Islamic Iran, Iranian Studies, vol 6,1978, p21

(١) نظام الملك: سياست نامه، ص ٣، ٤.

(٢) نصرت الله حكيم الهى: تاريخ ايران، از تاسيس طاهريان تا حملة مغول، ص١٢٧.

(٣) ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد ٢، ص٩. رضا مصطفوى سبزوارى: سهم زبان فارسى وفارسى زبانان در تمدن جهانى، مجلة اشنا، شماره سيزدهم، سال سوم، ١٣٧٢، ص٥٢.

(٤) عبد النعيم محمد حسنين: إيران والعراق فى العصر السلجوقى، دار الكتاب المصرى. القاهرة، دار الكتاب اللبنانى. بيروت، ١٩٨٢، ص١٨٥.

العربية والفارسية فى التأليف، وكثرت المصنفات العربيّة وخاصة من جانب علماء الدين فى التفسير والفقه والحديث، كما كثرت المصنفات الفارسية فى الأدب والشعر.

٣ - مكانة العلماء فى المجتمع الصغدى

يعتبر العلماء فى نظر الإسلام ورثة الأنبياء، ومن هذا المنطلق قاموا بدور كبير فى المجتمع الإسلامى، فكانوا يتمتعون بالتجلة والاحترام التام. أما عن مستواهم المادى فيمكن اعتبارهم من أبناء الطبقة الوسطى ثم أن عدداً كبيرا منهم كانوا تجاراً بعيدين كل البعد عن وظائف الدولة، بل دأبوا على رفض العون منها والمشاركة فى أعمالها. وهذا ما أعطاهم مكانة خاصة فى المجتمع الإسلامى وأهلهم كى يلعبوا دور الوسيط بين الحاكم والمحكوم، وتمتع بعض علماء الصغد بمستوى معيشى مرتفع نتيجة لثرائهم، ومنهم الحسينى الإمام الحافظ الشريف المرتضى أبو المعالى محمد بن محمد بن زيد بن على العلوى (ت٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م) نزيل سمرقند أملى بها وحدث، وكان يملك قريبا من أربعين قرية خالصة له، وفى كل قرية وكيل أمين من قبل رئيس سمرقند[١] وكان كثير الإيثار، ينفذ فى العام إلى جماعة من الأئمة الألف دينار والخمس مائة وأكثر إلى كل واحد، فربما بلغ ذلك عشرة آلاف دينار، ويقول هذه زكاة مالى[٢].

---

(١) الذهبى: تذكرة الحفاظ، جـ٤، دار إحياء التراث العربى، ص١٢٠٩. أبو عبد الله الدمشقى الصالحى: طبقات علماء الحديث، جـ٣، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦، ص ٤٠٠، ٤٠٢.

(٢) الذهبى: العبر فى خبر من غبر، تحقيق أبى المهاجر محمد السعيد، جـ٢، دار الكتب العلمية. بيروت، ص٣٤٢. ابن العماد: شذرات الذهب، تحقيق لجنة إحياء التراث العربى، جـ٣، دار الآفاق الجديدة، بيروت ص٣٦٥. اليافعى: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، جـ٣، ص١٣٣.

بينما ارتقى بعض العلماء فى السلم الوظيفى، كالدهقان الرئيس أبى محمد عبد الرحيم ابن عبد الكريم بن أحمد الكرمينى(ت٤٥١هـ/ ١٠٥٩م) حدث بسمرقند، وهو شيخ لعبد الواحد بن إسرائيل الطرازى الذى سمع منه[١]. والقاضى الخطيب أبى الفتح ميمون بن طاهر بن عبد الله بن محمد ابن أحمد بن حاجب الكشانى الحاجى حدث عن أبيه (ت٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م)[٢]، والقاضى الإمام أبى محمد عبد الله بن نصر بن على بن أبى القاسم بن نصر بن منصور الكرمينى(ت٤٩٩هـ/ ١١٠٥م)[٣]، والقاضى أحمد بن محمد ابن حميد بن الأشعث أبى نصر الكشانى السمرقندى، روى الحديث عن أحمد بن محمد ابن إسماعيل البخارى[٤]. كما عمل بعض العلماء كسفراء لدى حكامهم، فكان الحسين بن على بن أبى القاسم أبو على اللامشى من أهل سمرقند(ت٥٢٢هـ/ ١١٢٨م)، روى الحديث وتفقه وكان يضرب به المثل فى النظر، بعث رسولا من خاقان ما وراء النهر إلى دار الخلافة[٥].

جدير بالذكر أن عددا غير قليل من العلماء والأدباء عاشوا فى رغد من العيش وذلك نتيجة لحرص الحكام أن يضموا أكبر عدد من الشعراء والكتاب والمفكرين فى شتى نواحى المعرفة، وأخذوا يجزلون لهم العطاء وذلك إما لرغبتهم فى العلم، أو لتزيين مجالسهم بالعلماء[٦]. فالعلم يزين الملوك أكثر

---

(١) النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص٣٧٥.

(٢) ابن الأثير: اللباب فى تهذيب الأنساب، جـ١، ص٣٢٧ .

(٣) النسفى: المصدرنفسه، ص٣٤٨.

(٤) الذهبى: تاريخ الإسلام، جـ٣٠، ص٨٧.

(٥) ابن الجوزى: المنتظم، جـ١٠، ص١٠.

(٦) عبد المجيد أبو الفتوح بدوى: التاريخ السياسى والفكرى للمذهب السنى، ص١٧. محمد نور الدين عبد المنعم: دراسات فى الشعر الفارسى حتى القرن الخامس الهجرى، القاهرة، ١٩٧٦، ص٣١.

مما يزين السوقة، وإذا كان الملك عالما صار العالم ملكا[1]. هكذا عاش كثير من العلماء فى كنف هذه الدول فى رغد من العيش، فأنتجوا وأبدعوا وأثروا المكتبة الإسلامية بمصنفاتهم القيمة .

ومن أهم ما عمل على إشعال الجذوة العلمية وإمدادها بوقود جزل لا ينفد مناظرات[2] العلماء، فى المساجد وقصور الخلفاء والوزراء فى علم الكلام والفقه واللغة والنحو وغير ذلك من العلوم التى كان يشتد فيها الخلاف والجدل[3].

كان مجلس نظام الملك يزدحم بالعلماء وطلبة العلم ورجال الدين على اختلاف درجاتهم ونزعاتهم، وكانت المناظرات فى المسائل العلمية والمجادلات فى المشكلات الدينية تجرى أمامه وتحت إشرافه، وكان يأنس لها ويفيد منها

---

(١) ابن الطقطقا: الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر. بيروت، ١٩٦٦، ص٦.

(٢) المناظرة مشتقة من النظر والفكر. والمناظرة لا تقع إلا بين اثنين، من حيث إنها مفاعلة تقتضى وجود طرفين فى النظر، وهى فى نظر كثير من أصحاب المذاهب مرادفة للمجادلة*. وقد حوى القرآن الكريم بين دفتيه بذورا لتلك المناظرات. قال تعالى: وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ. يس: آيه٧٨ - ٧٩ . وهنا يحكى مناظرة جرت بين النبى عليه الصلاة والسلام وبين أبى بن خلف .

* أحمد أمين مصطفى: المناظرات فى الأدب العربى إلى نهاية القرن الرابع، دار النمر للطباعة، القاهرة، ١٩٨٤، ص٧. بركات محمد مراد: منهج الجدل والمناظرة فى الفكر الإسلامى، القاهرة، ١٩٩٠، ص٤. مرتضى راوندى: تاريخ اجتماعى إيران، جلد هشتم، ١٣٧٤، ص٣٤٧.

(٣) حسن عبد الحميد ومحمود عرفة محمود: معالم تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، المطبعة الإسلامية الحديثة، القاهرة، ١٩٩٣، ص٢٢٨. شوقى ضيف: العصر العباسى الثانى، ط٦، القاهرة، ص١٢٢.

كما يستفيد منها الحاضرون. فإذا لمس فى أحدهم نبوغا قدمه على أقرانه[1]. وكانت المناظرة التى حدثت بين الفقيه أبى القاسم على بن أبى يعلى المظفر محمد العلوى الدبوسى وأبى المعالى الجوينى أمام الوزير نظام الملك فى أصفهان، خير مثال على ذلك. ولما تفوق الدبوسى على منافسه عينه نظام الملك فى نظامية بغداد، وبقى فى منصبه ثلاث سنين إلى أن توفى سنة (٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م)[2].

كما كان الإمام ركن الدين العميدى السمرقندى من كبار العلماء فاق كل مناظر فى فصاحة الكلام وبلاغة المعانى وحسن التقرير، حكى أن زين الدين عبد الرحمن الكشى وهو من فحول العلماء جاء فى محفل وكان العميدى حاضرا، فصب العميدى عليه من الملازمات حتى بهره، فقال الكشى: "قل واحدا واسمع جوابه"، فلما شرع الكشى فى الجواب كان العميدى يزيد عليه الجواب أيضا . وكان العميدى إذ حضر مدينة حضر جميع الفقهاء عنده واغتنموا حضوره وقرءوا تصانيفه، وذات يوم عزم الذهاب إلى العراق فقالوا للسلطان: إن هذا الرجل عديم المثل زينة لهذه البلاد، وذكر القزوينى: إنه كان يباحث أحدا فنقل نقلا فأنكر المباحث ذلك النقل، فقام العميدى ودخل البيت حتى يأتى بالكتاب الذى فيه النقل فأبطا الخروج، فدخلوا عليه فإذا هو مات، وذلك سنة (٦١٠هـ/ ١٢١٣م)[3].

شهدت أيضا مدن إقليم الصغد خلال العصر السلجوقى مساجلات بين الشعراء تدل على سعة أفقهم وغزارة ثقافتهم، منها تلك المناظرة التى حدثت بين الشاعر رشيدى السمرقندى والشاعر مسعود سعد سليمان[4]، وتلك التى

---

(١) عبد الهادى محمد محبوبه: نظام الملك، مطبعة امون، القاهرة، ١٩٩٩، ص٢٦٢.

(٢) السبكى: طبقات الشافعية الكبرى، جـ٥، ص٢٩٧.

(٣) القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد، ص٥٣٧، ٥٣٦.

(٤) أحمد حامد الصراف: عمر الخيام، بغداد، ١٩٣١م، ص٧٨.

دارت بين السوزنى ومعاصريه وبخاصة فى مجال الهجاء، كما دارت كذلك مناظرات بينه وبين حميد الدين جوهرى مستوفى، هكذا حرص شعراء هذه الفترة على التزود بالثقافات المختلفة والتبحر فى العلوم[١].

بلغت مجالس المناظرة فى سمرقند من البراعة فى المناقشة، والحرية فى إبداء الرأى والإصغاء لسماع الدليل ما تسير عليه المجامع العلمية فى عواصم العالم المتحضر اليوم من جدل وحجاج وفق المنهج العلمى حتى صارت المناظرة علما له قواعده وآدابه ومؤلفاته[٢] وكثرت مجالس المناظرات بين الفقهاء والأدباء حتى لا تكاد تخلو مدينة كبيرة من عقد المجالس بين كثيرين من علمائها[٣]، وكان لهذه المجالس آداب" معينة منها على سبيل المثال تحديد موعد الحضور وموعد الانصراف[٤].

قصارى القول: إن هذه المجالس التى وجدت فى مدن الصغد أدت بما لا يدع مجالا للشك إلى إثراء الحركة العلمية، ذلك أن العلماء بذلوا قصارى جهدهم، ليدعموا رأيهم بالأسانيد القوية ليحظوا بتقدير الحاضرين، وكان للخلافات فى الرأى التى تحدث بين رجال العلم، واحتدام المناقشات واشتداد حرارة المبارزة الفكرية أثر' كبير" فى تقدم الحركة العلمية واكتساب الثقافة الإسلامية غنى وثراء.

٤ - الرحلة فى طلب العلم

دعا الإسلام إلى الرحلة فى طلب العلم وأخذ العبرة من أحوال الأمم، فقال تعالى" فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ

---

(١) محمد محمد يونس: السوزنى السمرقندى وشعره الجاد، ص٦٢، ٦٣.

(٢) عبد الهادى محمد محبوبه: نظام الملك، ص٢٦٢

(٣) محمد كرد على: الإسلام والحضارة العربية، جـ٢، ط٣، القاهرة، ١٩٦٨، ص٨٣.

(٤) يوسف محمود: الإنجازات العلمية فى الحضارة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦، ص٧٨.

قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ[١]. وقال ﷺ: تعلموا العلم، فإن تعلمه حسنة ودرسه تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وهو عند الله لأهله قربة، وإذا مات مؤمن وترك ورقة واحدة عليها علم تكون تلك الورقة يوم القيامة سترا بينه وبين النار وأعطاه الله بكل حرف مكتوب عليها مدينة أوسع من الدنيا سبع مرات[٢]. وقال النبى ﷺ: اطلبوا العلم ولو بالصين[٣]. ومن خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع[٤]. وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود اتخذ نعليك من حديد وعصاك من حديد واطلب العلم حتى يتخرق النعلان وتنكسر العصا[٥].

كانت الرحلة فى طلب العلم من سمات الحياة العامة فى إقليم الصغد فى العصرين السلجوقى والخوارزمى، وساعد على تيسير هذه الرحلة عدم وجود أى حواجز بين أقطار العالم الإسلامى، حيث كانت البلاد الإسلامية وحدة ثقافية واحدة[٦] رغم التفكك والانحلال السياسى للدولة الإسلامية؛ فبفضل تنافس دول الإسلام تعددت البيئات الفكرية وأصبح لكل دولة إسلامية

---

(١) التوبة: آية١٢٢.

(٢) محمد بن أبى بكر السمرقندى: شرعة الإسلام إلى دار السلام، تعليق سيد محمد منورنينار، دلهى، ص٢٧.

(٣) أبو حامد محمد بن محمد الغزالى: إحياء علوم الدين، جـ١، المكتبة التجارية الكبرى، د.ت، ص٨،٩.

(٤) النواوى: رياض الصالحين، ص ٣٩٥، ٣٩٦.

(٥) محمد بن أبى بكر السمرقندى: المصدر نفسه، ص٣٨.

(٦) عبد البارى محمد الطاهر: خراسان وما وراء النهر، القاهرة، ١٩٩٤، ص١٤٤. منيرة ناجى سالم: تاج الإسلام أبو سعد السمعانى وكتابه التحبير فى المعجم الكبير، القاهرة، ١٩٧٦، ص٤٣٠.

شهرة فى ناحية خاصة من الثقافة، ولم تمنع الخصومات السياسية بين الدول التعاون الثقافى[1].

ولاشك أن وحدة اللغة والدين فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ساعدت على نشاط التبادل الفكرى وانتقال العلماء[2]. وللرحلة فى طلب العلم فوائد جمة منها التمكن من الجوانب العلمية لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ والتلقى عن الرجال[3]، ونشر العلم الذى حصله العالم واتساع الثقافة العامة، وكسب صداقات جديدة خالصة[4].

علاوة على ما للرحلة من أثر فى تهذيب الطباع ورقى الآداب، ذلك أن كثرة ما يلاقيه الرجل فى السفر من المشاق يقوى فى نفسه خلق الحلم، ومن فرائض الإسلام ما لا يؤدى إلا بوسيلة الرحلة، وهو حج البيت الحرام، فكان الحج من أهم العوامل التى دفعت بالمسلمين من كل فج عميق وعلى كل

---

(١) الحسين بن رشيق المالكى: لباب المحصول فى علم الأصول، تحقيق محمد غزالى عمر جابى، جـ١، ٢٠٠١، ص٣٨. عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ط٤، القاهرة، ١٩٧٨م، ص١٥٢. على حبيبة: العباسيون فى التاريخ، مطبعة الإرشاد، القاهرة، ١٩٨٠، ص٢٦٤. محمد ماهر حمادة: المكتبات فى الإسلام، ط٢، بيروت، ١٩٧٨م، ص١٩١.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: المدينة الإسلامية، ط٢، القاهرة، ١٩٨٢م، ص٨٧. منير الدين أحمد: تاريخ التعليم عند المسلمين، ترجمة سامى الصفار، السعودية، ١٩٨١، ص٦٧.

(٣) الشاشى: حلية العلماء فى معرفة مذاهب الفقهاء، تحقيق ياسين أحمد إبراهيم درادكه، جـ١، عمان، ١٩٨٨، ص٢١. عمر فروخ: عبقرية العرب فى العلم والفلسفة، ط٣، بيروت، ١٩٦٩م، ص٩٣.

(٤) الخطيب البغدادى: الرحلة فى طلب الحديث، تحقيق نور الدين عتر، بيروت، ١٩٧٥، ص٢٥ - ٢٧. أحمد فؤاد الأهوانى: التربية فى الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ص٦٣.

ضامر إلى الرحلة والانتقال، فالحج كان ولازال رحلة يتشوق إلى أدائها كافة المسلمين، وليس علماؤهم أو فقهاؤهم فقط، ونتيجة لذلك أكتسبت رحلة الحج صفة تراثية شعبية[١]. وللرحلة إلى بيت الله الحرام فى أشهر الحج جانب عظيم من معنى التجول فى أقطار مختلفة حيث يلاقى فيها المسلم طوائف من أمم مختلفة الأجناس متباعدة البلاد[٢].

ظهرت الحاجة للرحلة فى طلب العلم فى مدن الصغد منذ بداية الإسلام، حيث لم يكن للإسلام إلا معلم واحد هو رسول الله، وإلا مركز واحد هو مكان إقامته، مكة أولا، ثم المدينة ثانيا. وكان علماء مدن الصغد يتخذون الرحلة وسيلتهم لاستتمام العلم، وإكمال المعرفة، فينبغ العالم منهم حيث يبلغ فيثقف ثقافة بيئته ويتعلم علم أهله وبلده وإقليمه، ومهما كانت منزلة العلماء الذين تعلم عليهم فلا يتم له العلم إلا بالرحيل إلى المراكز العلمية المعروفة، وكانت متعددة منبثة فى كل مكان فى العالم الإسلامى فى ذلك الوقت[٣].

لا شك أن الشغف العلمى الشديد هو الذى دفع العلماء فى مدن الصغد وسائر مدن العالم الإسلامى إلى الرحلة من بلد إلى بلد طلبا للعلم مهما تجشموا فى ذلك من مشاق إيمانا منهم بان العلم لا وطن له ولا نهاية

---

(١) حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، عالم المعرفة. الكويت، ١٩٨٩، ص٨٩. زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٥، ص٧. نقولا زياده: الجغرافية والرحلات عند العرب، ط٣، بيروت، ١٩٨٢، ص١٣٨.

(٢) محمد الخضر حسين: اثر الرحلة فى الحياة العلمية والأدبية، المجمع العلمى العربى، جـ٣، دمشق، ١٩٥٤، ص٣١٨.

(٣) الجوينى: البرهان فى أصول الفقه، جـ١، ط٢، قطر، ١٩٧٩م، ص٣٦، ٣٥. الجوينى: الدرة المضية فيما وقع فيه الخلاف بين الشافعية والحنفية، تحقيق عبد العظيم الديب، قطر، ١٩٨٦، ص٣٥.

لـه، وأن العالم مـهمـا بلغ علمه وارتفع شأنه فـسيـجد عند غيـره فوائد أو زوائد، قد لا تكون عنده[١]، وفى هذا الصدد قـال أبو أيوب الأنصارى: من أراد أن يكثر علمه، فليجالس غير عشيرته[٢].

كان طلبة العلم فى سمرقند أثناء رحلاتهم يدرسون ويتلقون عن الشيوخ ويجتـمعون بالعلمـاء، وكان علماء اللغـة يرحلون إلى البادية لجـمع الألفاظ النادرة والمهجـورة ومفـرداتها[٣]، ورحل الأدباء فى أقطار الدول الإسلامـية يأخذون عن أدبائهـا ويفيدون من شـراحها ونقـادها، وكان الفقـهاء يرحلون بدورهم للتتلمذ على أئمتهم، ومثلهم العلماء المختلفون فى كل فرع من فروع العلم[٤]. وكـان المحـدثون أنشط الطلاب علـى الرحـيل فى طلـب العلم وأصبرهم على عنائه[٥]. ولما كان الحديث النبوى هو المصـدر الثانى للتشريع وكان منه بهذه المكانة فـأعطاه العلماء غاية اهتمـامهم وبذلوا من أجل الحديث وأسـانيده كل مـا فى وسعـهم، فكانت الرحلة فى طلب الحـديث من لوازم طريقة المحدثين ومنهجهم فى التحصيل العلمى[٦]. قال الخطيب البغدادى فى هذا الصدد: " ولو كان حـكم المتصل والمرسل واحدا لما ارتحل كتـبة الحديث،

---

(١) الجوينى: الدرة المضية فيما وقع فيه الخلاف بين الشافعية والحنفية، ص٣٦.

(٢) القرطبى: بهـجة المجالس، وأنس المجـالس، وشحذ الذاهن والهـاجس، تحقيق محـمد مرسى الخولى، مج١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨١، ص٤٣.

(٣) عبـد الرحيـم غنيمـه: تاريخ دانشكاهاى بزرك إسلامى، ترجـمة نوركـسائى، تـهران، ٢١٧٦، ص.٢٦٦.

(٤) شوقى ضيف: العصر العباسى الثانى، ص١٢٦.

(٥) حسن عبد الحميـد ومحمود عرفة محمود: معالم تاريخ الحـضارة العربية، ص٢٨١. عبد البارى محمد الطاهر: خراسان وما وراء النهر، ص١٤٦.

(٦) الخطيب البغدادى: الرحلة فى طلب الحديث، ص,١٦

Gibb ,Arabic literature, London, 1926, p53

وتكلفوا مشاق الأسفار إلى ما بعد من الأقطار، للقاء العلماء والسماع منهم فى سائر الآفاق"[١].

كانت سمرقند مركز العلم وموطن العلماء، ونظرا لمكانتها العلمية قصدها طلاب العلم من شتى أنحاء العالم الإسلامى للقاء مشايخها والدراسة عليهم، فدرس البعض منهم فى هذه المدينة، كما رحل عدد من طلابها إلى بلدان العالم الإسلامى الأخرى وقرءوا ودرسوا القرآن والحديث والأدب فى تلك البلاد .

من علماء سمرقند الذين رحلوا إلى بلدان العالم الإسلامى الإمام الحافظ الرحال أبو محمد الحسن بن أحمد بن محمد بن قاسم بن جعفر السمرقندى (ت٤٩١هـ/ ١٠٩٧م) صحب الحافظ جعفر بن محمد المستغفرى، وسمع ببخارى وبلخ ونيسابور، له كتاب بحر الأسانيد فى صحاح المسانيد[٢]. ومحمد بن محمد بن أيوب أبو محمد القطوانى (ت٥٠٦هـ / ١١١٢م) من أهل سمرقند سافر البلدان وسمع الكثير، وكان إمامًا واعظًا له القبول بين الخواص والعوام[٣]. وأيضا أبو القاسم محمد بن ميمون بن محمد بن عبد الله الدبوسى(ت٥٣٠هـ/ ١١٣٥م) كان من كبار العلماء الرحالة، وكان شريك السمعانى فى الدرس والرحلة إلى نيسابور[٤].

أما عن العلماء الذين وفدوا إلى سمرقند من أنحاء العالم الإسلامى

---

(١) الخطيب: الكفاية فى علم الدراية، المكتبة العلمية، د.ت، ص٤٠٢.

(٢) الذهبى: تذكرة الحفاظ، جـ٤، ص ١٢٣٠، ١٢٣١. السيوطى: طبقات الحفاظ، تحقيق على محمد عمر، القاهرة، ١٩٧٣، ص٤٥٠. الصيريفينى: تاريخ نيسابور المنتخب من السياق، إعداد محمد كاظم المحمودى، قم المقدسة، ١٩٨٢م، ص٢٨٢.

(٣) ابن الجوزى: المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، جـ٩، ص١٧٣، ١٧٢. سبط بن الجوزى: مرآة الزمان، جـ٨، القسم١، حيدر آباد، الدكن، ١٩٥١، ص٤٣.

(٤) أحمد تيمور باشا: ضبط الأعلام، مؤسسة الكتب، بيروت، ١٩٩٥م، ص٨٤.

فهم كثيرون، منهم الإمام الرحال أبو طاهر محمد بن أحمد بن على بن حمدان الخراسانى الحافظ (ت٤٤١هـ/ ١٠٤٩م) سمع بسمرقند من أبى سعد السمعانى، وبنيسابور من أبى بكر الطرازى والحافظ أبى بكر الجوزقى، وبالرى من جعفر بن فناكى، وبمرو من أبى الفضل محمد بن الحسين الحداد، وسمع منه أبو سعيد محمد بن أحمد النيسابورى[١] ومنهم أبو القاسم حمد ابن على ابن محمد الطبرستانى (ت٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م) كان من كبار المحدثين، له رحلة واسعة إلى بلدان العالم الاسلامى، سمع بسمرقند من منصور الكاغدى، وسمع بالرى من محمد بن على القصار، وسمع السنن بالبصرة من الهاشمى، وسمع من أصحاب الأصم بنيسابور، وأنفق على أصحاب الحديث أموال كثيرة[٢].

والإمام الحافظ الجوال أبو الوليد الحسن بن محمد بن عبد الرحمن البلخى(ت٤٥٦هـ / ١٠٦٣م) سمع ببغداد ودمشق وبلخ ونيسابور وهراة، وطوف البلاد وحصل الأسانيد والغرائب ومات بسمرقند[٣]. والشيخ الإمام المحدث أبو مسلم عمر بن على بن الليث الأصبهانى المفيد، الطواف (ت٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م) كان من كبار الرحالة سمع بسمرقند وبكش وبلخ، وغزنة ومرو[٤]. فضلا عن محمد بن محمد بن محمد أبو عبد الله، مجد الدين الختنى (ت٥٧٦هـ / ١١٨٠م) أحد علماء الحنفية، كان أبوه من ملوك ما وراء النهر، زهد وترك الملك وهاجر فى طلب العلم إلى سمرقند وبخارى

---

(١) أبو عبد الله الدمشقى: طبقات علماء الحديث، تحقيق أكرم البوشى وابراهيم الزيبق، جـ٣، ط٢، بيروت،١٩٩٦م، ص٣٠٥.

(٢) الذهبى: تاريخ الإسلام، جـ٣٠،ص٦٢،٦١.

(٣) الذهبى: تذكرة الحفاظ، جـ٣، ص١١٥٥. السيوطى: طبقات الحفاظ، ص٤٣٧. أبو عبد الله الدمشقى: المصدر نفسه، جـ٣، ص ٣٥٢، ٣٥٣.

(٤) الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ١٩، ص٤٠٧.

وخراسان، فتفقه ثم رحل إلى البلاد الشامية والبلاد المصرية، وأقام بمصر ودرس بالمدرسة السوفية إلى أن مات بها[1].

وأبو المظفر عبد الرحيم بن عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعانى (ت٦١٧هـ / ١٢٢٠م) الفقيه الشافعى المحدث مسند خراسان، صحبه والده لسماع الحديث وطاف به بلاد خراسان وما وراء النهر وخاصة سمرقند وبخارى، كان مفتيا عارفا بالمذهب انتهت إليه رياسة الشافعية ببلده، وختم به البيت السمعانى[2].

ومما يجدرالإشارة إليه أن الرحلات فى طلب العلم ارتبطت بالتجارة، حيث كان العلماء وطلاب العلم يخرجون فى ركاب التجار مستخدمين الطرق التجارية فى التنقل بين المدن والبلاد الإسلامية سعيا وراء العلم والمعرفة[3].

ولاشك أن لاهتمام سلاطين السلاجقة بتوفير الأمن خلال سير القوافل التجارية فى بلاد العراق والمشرق، أثرًا واضحًا فى العناية بالطرق التجارية، فبنى السلطان ملكشاه منارة القرون من حوافر الغزلان بالكوفة وبنى مثلها فى ما وراء النهر ليهتدى بها التجار أثناء سيرهم ليلا، فأصبحت السبل فى أيامه آمنة[4]. كما بنى أحواض الماء على طريق الحجاز[5] كذلك اهتم سلاطين

---

(١) القرشى: الجواهر المضية، جـ٣، ص٣٤٨. المقريزى: كتاب المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوى، جـ٧، ١٩٩١، ص ٩١، ٩٢.

(٢) الذهبى: العبر فى خبر من غبر، جـ٣، ص١٧٤. ابن العماد: شذرات الذهب، جـ٥، ص٧٥، ٧٦. عبد الصاحب عمران الدجيلى: أعلام العرب فى العلوم والفنون، ط٢، العراق، النجف، ١٩٦٦، ص ٢٨١، ٢٨٢. ناجى معروف: عروبة العلماء المنسوبين إلى البلدان الأعجمية فى خراسان، جـ١، ص ٤٧٠

(٣) Jonathan Karam Skaff , The Sogdian Trade Disapora in East Turkestan , Journal of the Economic and Social History of Orient, vol 46, no,4, 2004, p475.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص١٤٢. المقدسى: الروضتين فى أخبار الدولتين، جـ١، دار الجيل، بيروت، ص٢٦. محمد محمود إدريس: تاريخ العراق والمشرق الإسلامى، ص١٩٩.

(٥) الراوندى: راحة الصدور، ص٢٠٥.

السلاجقة بتحسين الطرق وتأمينها من اللصوص[١]. واعتنى طمغاج خان إبراهيم حاكم سمرقند وما وراء النهر (٤٤٤ - ٤٦٠هـ/ ١٠٥٢ - ١٠٦٨م) منذ البداية بتثبيت قواعد النظام والأمن بأراضيه، فكان يواجه بصرامة أى اعتداء يوجه إلى أملاك الغير، فحدث ذات مرة أن كتب بعض اللصوص على باب قلعة سمرقند "نحن كالبصلة، لما تقطع تكبر رؤوسنا" فأمر الخان بأن يكتب تحت ذلك "وأنا كالبستانى كلما ارتفع لكم رأس اجتثثته"[٢].

أما عن أهم الطرق التى استخدمها التجار وطلاب العلم فهى: أولاً: طريق الحرير العظيم[٣] يبدأ من بغداد إلى همدان، فقزوين، والرى ونيسابور، ومرو، وبخارى، وسمرقند ثم يتجه إلى الصين[٤]. وكان لطريق الحرير دور

---

(١) محمد محمود إدريس: المرجع نفسه، ص٢٠٠.

(٢) Davidovich,The Karakhanids History of civilization of central Asia,vol 4, p128.

(٣) طريق الحرير العظيم: هو طريق تجارى قديم ربط بين الشرق والغرب، وجد منذ القرن الثالث قبل الميلاد، ولما كان الحرير الصينى أرقى البضائع التى تنقل عبر هذا الطريق وأغلاها ثمنًا. فان الجغرافى فيرديناند فون ريختوفن أطلق على هذا الطريق اسم طريق الحرير*. ويمتد طريق الحرير لمسافة خمسة آلاف ميل تقريبا**.

* آرجيه رفى فيربلوفكى الاتصالات فيما بين القارات طريق الحرير، ترجمة محمد عزب، مجلة ديوجين، العدد ٨٨، مطبوعات اليونسكو، ص٥٦.

** ايرين فرانك: طريق الحرير، ص١٥ .

Mildred Cable, The central Asian Buddhist, road to China ,Journal of Royal Central Asian Society, vol.30, part 3, 1943,p275

(٤) بدر الدين الصينى: العلاقات بين العرب والصين، جـ١، ١٩٥٠، ص ١١، ١٢.

Basil Gray , Treasures of Asia Persian Painting , Switzerland , 1977, p9 . Belyaev, Arabs , Islam and the Arab Caliphate , translated by Adolphe Gourevitch, Israel, 1969 ,p217. Walter Wallbank, Alastair, Scott, Civilization Past and Present , vol ,1. c3, 1954 , p199 . =

بارز فضلا عن كونه طريقا تجاريا كان يمثل حلقة الوصل بين حضارات البلاد فى الشرق والغرب يربط بين ثقافات الشعوب بعضها ببعض[١].

ثانيًا: الطريق التجارى الذى يسير من المنطقة الواقعة عند مصب نهر السند نحو فارس ماراً بولاية سجستان ومنها نحو خراسان غربا وبخارى وسمرقند شمالاً[٢].

ثالثًا: الطريق التجارى بين بلاد الروس والمشرق عن طريق بحر قزوين، ومنه تنقل التجارة إلى بخارى وسمرقند ببلاد ما وراء النهر ومنها إلى الصين[٣].

رابعًا: الطريق الملكى أو الذهبى بين سمرقند وبخارى[٤]. هكذا ساعد امتداد شبكة الطرق وأمنها على تيسير حركة تنقل العلماء وطلاب العلم فى ركاب التجار بين البلدان، ومن ثم انتشرت الحركة العلمية والنهضة الثقافية، أما وسائل النقل التى استخدمت فى هذه الطرق فهى الإبل والخيول والبغال،

=وكانت سمرقند من أهم المدن التى تقع على طريق الحرير .

Frye, The Heritage of Persia, California , 1993, p13. Gibb , The Arab Conquest in Central Asia , 1923, p5 .Harold Lamb , Cyrus the Great, New York , 1960, p168.

(١) Shahbazi ,The Silk Road , the Splendour of Iran , Ancient time, vol.1, ,London , 2001,p516. Susan Whilfield with Ursula William, The Silk Road Trade , Travel war and faith , HIong kong ,2004, p13 .

(٢) هايد: تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ترجمة أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، ١٩٩٤م، ص٥٣

(٣) إبراهيم أيوب: التاريخ العباسى السياسى والحضارى، بيروت، ١٩٨٩، ص٢٤٥. محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص١٤٩.

(٤) ايرين فرانك: طريق الحرير، ص١٥ .

John Lawton , Travel to Landmarks Samarkand and Bukhara , London ,1991,p31.

لكن الإبل استخدمت أكثر من غيرها لتحملها وصبرها على مشاق الأسفار البعيدة، وكان عدد جمال القافلة يصل إلى ما يقرب من خمسة آلاف جمل تخترق بلاد العالم من شرقه إلى غربه[١].

خلاصة القول كانت الرحلة فى طلب العلم من سمات الحياة العامة فى مدن إقليم الصغد، بل وفى الدولة الإسلامية بأسرها، فأدى الاهتمام بالرحلة من أجل العلم إلى إثراء الحياة الفكرية والنهضة الثقافية.

٥ - الإجازات العلمية

الإجازة لغة: إعطاء الإذن، لهذا المعنى أشار الفيروزآبادى بقوله: "أجاز له سوغ له، والإجازة فى الاصطلاح إذن وتسويغ"[٢]. وهى أن يأذن الشيخ لغيره بأن يروى عنه مروياته أو مؤلفاته وكأنها تتضمن إخباره بما أذن له بروايته عنه، قال ابن رجب: " إن الذى استقر عليه العمل، وقال به جماهير أهل العلم من أهل الحديث وغيرهم، القول بتجويز الإجازة وإباحة الرواية بها"[٣].

الإجازة مأخوذة من جواز الماء الذى تسقاه الماشية والحرث، يقال عنه استجزت فلانًا فأجازنى إذ أسقاك ماء لأرضك ولماشيتك[٤]، كذلك طالب العلم يسأل العالم أن يجيزه علمه فيجيزه إياه، والطالب مستجيز والعالم مجيز، والإجازة إنما هى إباحة المجيز للمجاز له رواية ما يصح عنده أنه

---

(١) حسين على المسيرى: تجارة العراق فى العصر العباسى، الكويت، ١٩٨٢م، ص٢٣٠.
ول ديورانت: قصة الحضارة، جـ٢، مج٤، ص١٠٩.

(٢) الفيروزآبادى: القاموس المحيط، جـ٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨، ص١٧٠.

(٣) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، جـ١، ط٩، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٥، ص٢٦.

(٤) الخطيب البغدادى: الكفاية فى علم الدراية، ص٣١٢. منيرة ناجى سالم: تاج الإسلام أبو سعد السمعانى وكتابه التحبير فى المعجم الكبير، ص١٠٥

حديثه[1]، وبذلك فالإجازة إذن ورخصة تتضمن المادة العلمية الصادرة من أجلها، يمنحها الشيخ لمن يبيح له رواية المادة المذكورة فيها عنه، وتكون الإجازة بهذا المعنى طريقة من طرق نقل الحديث وتحمله من الشيخ إلى من أباح له نقل الحديث عنه[2].

وتطور نظام الإجازة منذ القرن الخامس الهجرى إلى حد بعيد، حتى صار الشيخ يجيز قبل وفاته جميع مسلمى عصره فى رواية الأحاديث التى كان يعرفها[3]. وكان الشيخ يمنح الإجازة لطالبها بطريقتين: إحداهما الإجازة بالمشافهة، وثانيهما الإجازة التحريرية، وهى التى شاعت منذ العصر السلجوقى، على أن الإجازة الشفهية أقدم من الإجازة التحريرية[4]، واعتاد الشيوخ أن يكتبوا إجازتهم على الكتاب الذى درسه الطالب على أيديهم، ثم حدث تطور فى الإجازات التحريرية حيث أصبحت مستقلة عن الكتاب، كما أصبحت مفصلة مشتملة على طرق الرواية[5].

أما عن أنواع الاجازات فهى:

أولها: المناولة وهى أرفع ضروب الإجازة وأعلاها، وصفتها أن يدفع المحدث إلى الطالب أصلا من أصول كتبه أو فرعا مما كتبه بيده، ويقول له هذا الكتاب سماعى من فلان وأنا عالم بما فيه، فحدث به عنى، فإنه يجوز

---

(١) الخطيب البغدادى: الرحلة فى طلب الحديث، ص٣٢٥.

(٢) عبد الله فياض: الإجازات العلمية عند المسلمين، بغداد، ١٩٦٧، ص٢١.

Frye, The Golden age of Persia , p229

(٣) مريزن سعيد مريزن عسيرى: الحياة العلمية فى العراق، ص٢٥٠.

(٤) ملكة أبيض: التربية والثقافة العربية الإسلامية فى الشام والجزيرة، ص٢٨٦,

(٥) عبد الله فياض: الإجازات العلمية عند المسلمين، ص٢٧، ٢٤. مريزن سعيد مريزن عسيرى: المرجع نفسه، ص٢٥٠.

للطالب روايته عنه، وتحل تلك الإجازة محل السماع عند جماعة من أئمة الحديث[1].

والنوع الثانى: هو أن يدفع الطالب إلى الراوى صحيفة كتب فيها: إن رأى الشيخ أن يجيز لى جميع ما يصح عندى من حديثه، فيقول له الراوى بلفظه: أجزت لك كما سألت، أو يكتب له ذلك تحت خطه فى الصحيفة[2]، وكثر هذا النوع فى سمرقند، فعلى سبيل المثال ألتمس الظهير أبو بكر بن أحمد بن على السمرقندى (ت٥٥٣هـ/١١٥٨م) الإجازة من أبى حفص عمر بن محمد النسفى السمرقندى قائلا:

أيا مقتدى الأنام ياذا العلا عمر ... وقاك حفيظ الخلق من شبهة الضرر

أجزلأبى بكر بن أحمد مفضلا ... وبدل له بالأجر بالصفوة الكدر

جميع الذى صنفته وسمعته ... خذ صالح الدعوات فى ظلمة السحر

فكتب إليه أبو حفص عمر:

أجزت لسيدى وفريد عصرى ... أبى بكر بن أحمد ما ابتغاه

على شرط التحرز والتوقى ... وذكر بالدعاء كما حكاه

أجبت دعاءه فينا وفيه ... وفى الدارين ثم له مناه[3]

النوع الثالث: هو أن يكتب الراوى بخطه جزءًا من سماعه أو حديثا، ويكتب إلى الطالب" إنى أجزت لك روايته بعد أن صححته بأصلى "[4]

---

(١) الخطيب البغدادى: الكفاية فى علم الدراية، ص٣٢٦. أحمد شلبى: تاريخ التربية الإسلامية، ص٢٥٠ عبد الله فياض: المرجع نفسه، ص٣٤. ملكة أبيض: المرجع نفسه، ص٢٨٦ .

(٢) الخطيب البغدادى: المصدر نفسه، ص٣٣٤. منير الدين أحمد: تاريخ التعليم عند المسلمين، ص٦٤.

(٣) القرشى: الجواهر المضية، جـ٤، ص ١٠٤، ١٠٥.

(٤) الخطيب البغدادى: الكفاية فى علم الدراية، ص ٣٣٦. مريزن سعيد مريزن: الحياة العلمية فى العراق، ص٢٥١.

ووجد هذا النوع فى سمرقند ومثله السيد الإمام أبو الحسن محمد بن محمد بن زيد العلوى البغدادى (ت٤٩٢هـ / ١٠٨٩م) نزيل سمرقند كان أفضل علوى فى عصره له المعرفة التامة بالحديث وتميز بحسن التصنيف، حدث عنه أبو الفتح أحمد بن الحسين الأديب السمرقندى بالإجازة[١]. وأنشد لنفسه فى الجواب عن الاستجازة فى رواية الحديث:

أخلاى أجزت لكم سماعى ... وما صنفت من كتب الحديث
إذا ما شئتم فارووه عنى ... كبيركم وذو السن الحديث
أجزت لكم ذى عقل ودين ... يريد العلم بالطلب الحثيث
على شرط الإجازة فاحفظو ... عن التصحيف والغلط الخبيث
فإنى عن وقوع السهو فيه ... برىء معلن كالمستغيث
عليكم بالأناة لكل خطب ... فقل وقوع سهو من مريث
وأوصيكم بتقوى الله ... تنالوا الفوز من رب مغيث[٢]

النوع الرابع: وهو أن يكتب المحدث إلى الطالب "أجزت لك جميع ما صح ويصح عندك من حديثى[٣].

النوع الخامس: وهو أن يأتى الطالب إلى الراوى بخبر، فيدفعه إليه،

---

(١) الذهبى: تاريخ الإسلام، جـ٣٢، ص٣١٢، ٣١١. الصريفينى: تاريخ نيسابور المنتخب من السياق، ص٦٣. ناجى معروف: مدارس قبل النظامية، مطبعة المجمع العلمى العراقى، ١٩٧٣م، ص٥١.

(٢) الصريفينى: المصدر نفسه، ص٦٣. ناجى معروف: مدارس قبل النظامية، مجلة المجمع العلمى العراقى، مج٢٢، ١٩٧٣، ص١٤٤.

(٣) الخطيب البغدادى: المصدر نفسه، ص٣٤٥. أحمد شلبى: تاريخ التربية الإسلامية، ص٢٥٠.

ويقول لـه: أهذا من حـديثك؟ فيتصفح الراوى أوراقـه ثم يقول لـه نعم، هو من حديثى، فيذهب به الطالب فيحدث به عنه من غير أن يستجيز منه[1].

جدير بالذكر إن الإجازات العلمية فى مدن إقليم الصغد لم تقتصر على الحديث، بل تعدته إلى فروع العلم المختلفة من حديث ولغة وأدب وتاريخ، وجرت العادة خاصة فى العصر السلجوقى أنه إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس يأذن لـه شيخه أن يفتى ويدرس، ويكتب لـه بذلك[2].

قصد سمـرقند عدد من الطلبة والعلماء من البلدان الإسلامـية، لسماع الحديث مـن علمائه، وحضـور مجـالس العلم والأدب واللغة والتـاريخ فى مدارسـها. وكان هؤلاء الطلبة يمكثـون زمنا طويلا فى سمرقند للدراسـة فلا يغادرونهـا حتى يحصلوا على الإجـازات العلمية من علمـائها، التى ترفع من شأنهم فى مجتمع أنظاره مشدودة إلى مهد الإسلام واللغة العربية[3].

ومن أهم علماء سـمرقند الذين رحُل إليـهم للحصـول على الاجازات العلمية على بن محمد بن إسماعـيل بن على بن أحمد بن محمد بن إسحاق الأسبيـجابى السمرقندى المعـروف بشيخ الإسلام (ت٥٣٥هـ / ١١٤٠م) وهو من أسبيجـاب من ثغور الترك، سكن سمرقند، وصار المفـتى والمقدم بها ولم يكن أحد بما وراء النهر فى زمانه يحفظ مذهب أبى حنيـفة ويعرفه مثله، قال السمـعانى: كتب لى بالإجـازة بجمـيع مسمـوعاته، وقال صـاحب الهداية: "اختلفت إليه مدة وحصلت من فـوائده ومحافل النظر وشرفنى بالإطلاق فى

---

(١) الخطيب البـغدادى: المـصدر نفـسه، ص ٣٤٦. مـريزن سـعيـد مـريزن: المرجع نفسـه، ص٢٥١.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشـا، جـ١٤، ص٣٢٢. محمد غريب جودة: عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية فى العلوم الطبيعية والطب، ص٤٩ .

(٣) جعـفر ماجـد: فصول فـى الأدب والثقافـة، الدار العربية للـكتاب، طرابلس، ١٩٨٤، ص١٣.

الإفتاء، وكتب لى بذلك كتـابا بالغ فيه وأطنب ولم يكن يتفق لى الإجازة منه وأخبرنى عنه غير واحد"[1].

أما العلمـاء الذين وفدوا إلى مدن الصـغد فكان منهم الشـيخ أبو الفتح أحمد بن الحـسين بن عبد الرحمن العـبسى (ت٥٥٠هـ/ ١١٥٥م) سكن قرية على بعد ثمانية فراسخ من سمرقند يقال لها فراب بسفح الجبل قدم سمرقند، وسمع أبا المعالى محمد بن محمد بن زيد الحسينى الحافظ، ولكن ضاع أصل سماعه، ووجد السمعانى لـه إجازة بخط أبى المعالى فقرأ السمعانى عليه قريبا من عـشرة كـتب من تصانيف أبى المعـالى، ورجع إلى قريـة فراب[2]. وأبو محـمد سراج الدين على بن عثـمان الأوشى (ت٥٧٥هـ/ ١١٧٩م)، ولد فى أوش من نواحى فـرغانة، رحل فى طلب الـعلم إلى سمَـرقند، فدرس بهـا العلوم الشرعية على إمامين جليلين من علماء الحنفـية: أحدهما العالم محمد ابن عبـد الحميـد الأسمندى الذى سمع منه جـامع الترمذى إجـازة، والثانى محمد بن محمد بن زيد بن على بن موسى الشريف المرتضى أبو الحسن وأبو المعالى العلوى الحسنى، سمع منه كتاب الإقناع للمروزى[3].

خـلاصة القـول: أن الإجازة فـضلا عن كـونها طريقـة من طرق نقل الحديث قـد لعبت دورا هامـا فى حفظ سلسلة السند وربطهـا بالمصدر الأول الذى أخذ عنه الحديث، ولم تقتصر مهمة الإجازة على حفظ سند الحديث بل سـاعدت على حـفظ سند الكـتب التى لا تمت للحـديث بصلة. كـما تعـد الإجازة من بين الوسـائل التى تمدنا بمعلومات جـغرافيـة وتاريخية عن مـراكز العلم فى العالم الإسلامى وعن انتقال الأفراد إليها.

---

(١) السمعانى: التحبير فـى المعجم الكبير، جـ١، ص٥٧٨. القـرشى: الجواهر المضية، جـ٢، ص ٥٩١، ٥٩٢

(٢) السمعانى: الأنساب، جـ٤، ص٣٥٣. ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج٢، ص٣٦٠

(٣) هشـام نشابه: مـوسـوعة أعـلام العلمـاء والأدباء العرب والمسـلمين، جـ٢، بيـروت، ٢٠٠٤م، ص٥٦٣.

٦ - أدوات الكتابة وحوانيت الوراقين

مرت الكتابة فى مدن الصغد وسائر البلاد الإسلامية بمراحل متعددة وطويلة وفقا لتطور المجتمعات البشرية، وتبعا لوعى الإنسان للأمور وارتباطه بالواقع[١]، فاستعمل الإنسان مواد كثيرة فى الكتابة أقدمها الطين والحجارة، ثم لحاء الأشجار والعظام والجلود وسعف النخل، كما استعمل الحرير الأبيض غالى القيمة فى الكتابة أيضا، وتفاوتت الأمم فى ذلك، فكتب أهل الصين على ورق يصنعونه من الحشيش، وكتب أهل الهند فى خرق الحريرالأبيض، واستعمل الفرس الجلود المدبوغة من جلود البقر والغنم والوحوش، كما كتبوا على اللخام وهى حجارة بيض رقاق، والنحاس والحديد وغيرها[٢].

بينما استعمل العرب الجلود واللخام والعسب وهو جريد النخل، كانوا يقشطون عنه الخوص ويكتبون فى الطرف العريض، والكرانيف وهى الأصول التى تبقى فى جذع النخلة بعد قطع العسب، والرق وهو ما يرقق من الجلد ليكتب فيه[٣]. وذكره الله سبحانه وتعالى "وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ"[٤].

---

(١) خيال محمد فهدى الجواهرى: من تاريخ المكتبات فى البلدان العربية، دمشق، ١٩٩٢، ص١٧.

(٢) محمد زيود: صناعة الورق والوراقة فى بلاد الشام فى العصر الفاطمى، المؤرخ المصرى، كلية الآداب جامعة القاهرة، العدد١٥، ١٩٩٥، ص١١.

(٣) سعد مرسى أحمد وسعيد إسماعيل على: تاريخ التربية والتعليم، مطبعة المجد، القاهرة، ١٩٧٢، ص ١٦٩، ١٧٠. محمد طاهر بن عبد القادر الكردى المكى: تاريخ الخط العربى وآدابه، ط٢، السعودية، ص٩٩. أحمد سعيد عبد الله: تاريخ التدوين ومواد الكتابة، آفاق الثقافة والتراث، السنة العاشرة، العدد٤٠، ٢٠٠٣، ص١٤٥.

Gavin Hambly , Centraal Asia , London , 1969 ,p68.

(٤) الطور: آيه١ - ٣.

كان المصريون أول من كتبوا على سطح أوراق النباتات عندما استخدموا أوراق النخيل ثم طوروا استخدام النباتات بصناعة القراطيس كمادة للكتابة[١] من نبات قصب البردى[٢]. وبذلك خطت الحضارة البشرية خطوة واسعة فى تحسين مواد الكتابة، ولم تزل القراطيس تستعمل امتيازا لها على غيرها[٣]، وظل هذا النوع من الورق سائدا فى مصر وغيرها من بلاد الدولة الإسلامية، حتى حل محله فى أوائل القرن الرابع الهجرى الكاغد السمرقندى[٤]، وهو

---

(١) Helen Loveday, Islamic Paper , study of Ancient craft , 2001,p10

(٢) البردى هو الخوص ويعرفه أهل مصر بالفافر، وهو نبات ينبت فى الماء، وله ورق كخوص النخل وله ساق طويلة خضراء*. ويبلغ طول نبات البردى عشر أقدام تقريبا، وسمكه من أسفله بوصتان، وبه أهداب كالشعر. وطريقة صناعة ورق البردى تتلخص فى أنهم كانوا يقطعون طرفى الساق لعدم صلاحيتهما ويشقون الساق إلى شظيات، ويشقون الشظيات إلى أخريات أرفع منها، وتجفف فى الشمس ثم تطحن وتدق بالغراء وتوضع طبقة فوقها أخرى تخالفها اتجاها، ويدقونها بلطف فتتفرطح الأعواد ثم تكبس، وتجفف جيدا وتدهن بزيت الشربين أو ما يقوم مقامه ليكتسب المرونة والليونة ثم يثقل فيصير ناعم الملمس حسن المنظر**.

* محمد العربى الخطابى: تنقيح مفردات ابن البيطار العشاب المالقى من كتاب الجامع، بيروت، ١٩٩٠، ص ٥٩، ٦٠.

** عبد العزيزعبد الرحمن: تاريخ الطب والصيدلة والكيمياء عند قدماء المصريين، القاهرة، ١٩٣٩، ص٥٥ . محمد حمادة: مقدمة فى تاريخ الكتب والمكتبات، بيروت، ١٩٩٦، ص٢٥. خليل صابات: تطور صناعة الورق فى مصر، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، مج١٩، جـ ١، ١٩٥٧، ص٢٤٥.

(٣) إبراهيم أيوب: التاريخ العباسى السياسى والحضارى، بيروت، ١٩٨٩م، ص٢٤٣. ديمومين: النظم الإسلامية، ترجمة صالح الشماع وفيصل السامر، مطبعة الزهراء، القاهرة، ١٩٥٢، ص٢٥٥ .

(٤) الكاغد: كلمة فارسية من أصل صينى وتعنى الورق *. والكاغد أجوده ما صفا لونه ونعم لمسه وثقل وزنه وقلت اسفاطه وآفته**. =

نوع من الورق يصنع من الكتان والقنب[1].

ويمكن القول بأن صناعة تجهيز ورق البـردى بمصر للكتابة، انتهت تماما حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى، حيث إن ورق البردى المؤرخ ينتـهى فى عام (٣٢٣هـ/ ٩٣٥م)،على حـين أن الوثائق المكتـوبة على الكاغد يبدأ تاريخها منذ عام (٣٠٠هـ/ ٩١٢م)[2].

=* عفيف البهنسى: معجم مصطلحات الخط العربى والخطاطين،بيروت،١٩٩٥م، ص١٢٧. فيليب حـتى: تاريخ العرب، جـ٢، بيروت، ١٩٥٣، ص٥٠٢. حسنى عـبد الوهاب: البردى والرق والكاغد فى افـريقية التونسيـة، مجلة معهد المخـطوطات العربية، مج ٢، جـ١، ١٩٥٦، ص٤٥.

** الدمشقى: كـتاب الإشارة إلى محاسن التجـارة ومعرفة جيد الأعراض ورديـها وغشوش المدلسين فيها، مطبعة المؤيد، ١٣١٨، ص٢٤.

(١) القنب: ضرب من الكتان يعمل منه حبال قـوية ولـه ورق شبيه بورق الشجر، وهو منتن الرائحة ولـه قـضيـبان فارعـا الطول، وبذره مسـتـدير ولـه حب يسمى الشـهدانج . ابن البيطار: الجـامع لمفردات الأدوية والأغذية، مج٤، ص٣٩. ابن منظور، لسـان العرب، تحقيق عـبد الله على الكبيـر ومحمد أحمـد حسب الله وهاشم محمـد الشاذلى، مج٥، ص٣٧٤٧. محمود مـصطفى الدمياطى: معجم أسمـاء النباتات الواردة فى تاج العروس للزبيدى، القاهرة، ١٩٦٥، ص١٢٩ .

(٢) يقال إن هذا النوع من الورق صنع لأول مرة فى الصين سنة(١٠٥ق.م).* والذى اخترعه هو " تساى لون" من أهل هانغ جو حيث كثرت فيـها أشجار التوت ويصنع من قشورها الورق ومن ثم عمت هذه الصناعة فى بلاد الصين**.

* برنارد لويس: العـرب فى التاريخ، ترجـمة نبـيه أمـين فارس، بـيروت، ١٩٥٤، ص٢٣ .شعـبان عـبد العزيـز خليفة: الكـتب والمكتبات فى الـعصور الوسطى، الـدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٧م، ص١٨٨.

John Depew , Library Media and Archival Preservation Hand book ,California,England, 1991,p3

** آدم متز: الحضارة الاسـلامية، ترجمة محمد عـبد الهادى أبو ريدة، جـ٢، دار الكتاب=

مما لا شك فيه أن الورق أسهم إسهاما كبيراً فى حفظ الحضارة وتطورها، فهو من أهم العوامل الداعمة لها، كما كان له أثره الواضح على اتساع دائرة التأليف والتصنيف. فيعد إنتاج الورق بداية المرحلة الذهبية للكتاب الإسلامى، والورق هو المادة الرئيسية للكتابة، وهو أحد الوسائل المهمة فى نقل الأفكار والعلوم والمعرفة الإنسانية والعقائد الدينية[1]. وكانت سمرقند أكبر مركز لصناعته[2] فرأى العرب فى الكاغد مادة خفيفة لينة سهلة الحمل والنقل لا تتطلب حيزاً كبيراً فأكثروا منه[3]. ويحدثنا الثعالبى" أن كواغيد سمرقند عطلت قراطيس مصر، والجلود التى كان الأوائل يكتبون فيها، لأنها أحسن وأنعم وأرفق وأوفق ولا تكون إلا بها وبالصين"[4].

=العربى، بيروت، ص٣٦٦، ٣٦٥. بدر الدين حى الصينى: العلاقات بين العرب والصين، ص٢٤٥. عبد الله بن العباس الجرارى: تقدم العرب فى العلوم والصناعات وأستاذيتهم لأوربا، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٦١، ص٢١٣. محمد طه الحاجرى: الورق والوراقة فى الحضارة الاسلامية، مجلة المجمع العلمى العراقى، مج١٣، ١٩٦٦، ص٧٥.

(١) أحمد سعيد عبد الله: تاريخ التدوين ومواد الكتابة، ص١٤١.

(٢) أبو بكر الخوارزمى: رسائل أبى بكر الخوارزمى، بيروت، ١٩٧٠، ص١٧٥. القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد، ص٥٣٦. محمد حسن العبادى: خراسان فى العصر الغزنوى، الأردن، ١٩٩٧، ص١٣٧

(٣) يحى وهيب الجبورى: الخط والكتابة فى الحضارة العربية، دار الغرب الإسلامى، بيروت، ١٩٩٤، ص٢٧٤

(٤) الثعالبى: ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم، مطبعة المدنى، ١٩٦٥، ص٥٤٣. الغرناطى: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق على عمر، القاهرة، ٢٠٠٣= =ص٣٩. عصام الدين عبد الرؤف الفقى: الحواضر الإسلامية، ص٢٤١. محمد محمود إدريس: تاريخ العراق والمشرق الاسلامى خلال العصر السلجوقى الأول، ص١٩١.

أما عن بداية ظهور الكاغد فى العالم الإسلامى فتعددت الروايات حيث يذكر معظم المؤرخين أنه اندلعت فى سنة (١٣٤هـ/ ٧٥١م) حرب بين القوات الصينية وقوات المسلمين بزعامة زياد بن صالح[١]، وانتصر المسلمون على الصينيين[٢] وفى هذا الصدد ذكر الثعالبى " أن الصينيين الذين وقعوا أسرى فى أيدى العرب علموا أهل سمرقند صناعة الورق"[٣]، بينما يذكر ول ديورانت أن سمرقند عندما فتحها العرب سنة (٩٤هـ/ ٧١٢م) كانت على معرفة جيدة بالكاغد، ووجد بها مصانع للورق ومن ثم تعلم العرب سر هذه الصناعة، ويؤيده فى ذلك كل من ريسلر وحيدر بامات وفامبرى[٤]

---

(١) زياد بن صالح: استخلفه أبو مسلم الخراسانى على الصغد وأهل بخارى عام (١٣٤هـ/ ٧٥١م) وهو أحد نقباء الدعوة العباسية ولكنه لم يلبث أن تحول عنه وخرج عليه وانتهى أمره بالقتل عام ١٣٥هـ . الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، جـ٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧، ص٣٦٩.

(٢) بدر الدين حى الصينى: العلاقات بين العرب والصين، ص٢٤٣ . نقولا زياده: تجارة بلاد الشام الخارجية فى العصر العباسى، عمان، ١٩٩٢، ص٣٠٨. وليم الخازن: الحضارة العباسية، ط٢، دار المشرق، بيروت، ١٩٩٢، ص٧٥. سيدة إسماعيل كاشف: علاقة الصين بديار الاسلام، مجلة كلية الاثار، العدد١، ١٩٧٦، ص٤٠ .

(٣) الثعالبى: ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب، ص٥٤٣. جون سى، فرنسيس اى، سامى خلف: عبقرية الحضارة العربية ينبوع النهضة، ترجمة صلاح جلال وآخرين، الإمارات، ١٩٧٧، ص٢١٣. دونالد هيل: العلوم والهندسة فى الحضارة الإسلامية، ص١٥٠. فليب حتى: تاريخ العرب، جـ٢، ص٥٠٣

Boyle, The Saljuq and Mongol Periods , the Cambridge History of Iran vol ,5 ,p146. Geza Fehervari Islamic Pottery Acomprehensive study based on the Barlow collection , London ,1973, p27. Bosworth and Gerad Clauson, Al- xwarazmi on the Peoples of Central Asia , Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain, parts1,2,1965, p6

(٤) جرجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى، جـ١، ص٣٢٩ . حيدربامات: مجالى=

وهذا الرأى يفتقد إلى الدقة فى ظل معرفتنا بحرص الصينيين على عدم إذاعة سر صناعتهم(١).

وعلى ذلك يبدو لنا من هذه الآراء والتى لا تختلف كثيراً أن معرفة العرب بالورق الصينى إنما كانت بعد أن امتدت فتوح المسلمين إلى بلاد ما وراء النهر حتى وصلت حدود الصين، مما جعل وجود الاحتكاكات والمنافسات ما بين الصينيين والحامية الإسلامية أمراً طبيعيا، وكان من اثر ذلك أن ظفر المسلمون ببعض الأسرى الصينيين ممن خبروا صناعة الورق وعرفوا أسرارها، وكان هؤلاء الأسرى هم النواة التى كانت على أساسها صناعة الكاغد أو الورق الصينى فى سمرقند(٢).

بعد انتقال سر صناعة الورق إلى سمرقند من الصين(٣) ناله على أيدى العرب التغيير الهام الذى يعتبر حادثًا هامًا فى تاريخ العالم، فقام المسلمون بتنقيته مما كان يستعمل فى صناعته من ورق التوت ومن الغاب الهندى(٤)،

=الإسلام، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، ١٩٥٦، ص١٤٣. ريسلر: الحضارة العربية، ترجمة غنيم عبدون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٨، ص١٨٥. فامبرى: تاريخ بخارى، ص٢٨. ول ديورانت: قصة الحضارة، جـ٢، مج٤، ص١٦٩.

(١) John Depew , Library Media and Archival Preservation Hand book ,p3 . Parter , The Art of Book Making the Splendour of Iran Islamic Period , Hong Kong ,vol .3, 2001,p14

(٢) هالة شاكر عبد الرحمن: الورق والوراقون فى العصر العباسى، القاهرة، ٢٠٠٤، ص١٠٤.

(٣) Boyle, The Saljuq and Mongol Periods , the Cambridge History of Iran,p146 Gerrit Parmele , A History of Civilization, p116.Gavin Hambly,Central Asia p68. Lynn Thorndike, A Short history of civilization , New York, 1926 ,p291.

(٤) آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص٣٦٦. عبد الله بن العباس الجرارى: تقدم العرب فى العلوم والصناعات، ص٢١٣.

وصنعوا الورق من القطن والخرق لتوفره وانتشاره[١]. وهنا يبرز دور الإبداع والابتكار فى العقلية العربية التى لم تنقل دون تجديد وإبداع بل أضافوا أسسا جديدة فى صناعته أعطت للورق صفات متميزة[٢]، وظلت سمرقند وقتا طويلا المدينة الهامة المنتجة للورق الجيد[٣]، وأصبحت منذ تركزت فيها صناعة الكاغد من المدن ذات الشأن الكبير فى أنحاء البلاد الإسلامية، وتستحق ما نعتها به الاصطخرى بأنها فرضة بلاد ما وراء النهر ومجمع التجارات[٤] خاصة أن ما اشتهرت به من الورق لا نظير له، وفيها كان يصنع ورق الكتابة ذو الجودة الفائقة[٥]. قال السمعانى فى صناعة الكاغد: " وهو لا يعمل فى المشرق إلا بسمرقند "[٦]

---

(١) محمود شكرى الألوسى البغدادى: بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب، جـ١، ص١٨٢. جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ط٤، مطبعة عيسى البابى، ص٤٨٢. حسن جبر: أسس الحضارة العربية الإسلامية، ط٢، القاهرة، ١٩٩٩، ص١٩٤ سعيد عبد الفتاح عاشور: فضل العرب على الحضارة الأوربية، القاهرة، ١٩٥٧، ص٧٦. محمد عادل عبد العزيز: الحضارة الإسلامية وعوامل الازدهار فى تداعيات الانهيار، دار غريب للطباعة، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٢٥٩.

(٢) أسامة النقشبندى: موسوعة الورق والكاغد، حضارة العراق، جـ٩، بغداد، ١٩٨٥، ص٤٤٣.

(٣) Annemarie Schimmel ,Calligraphy and Islamic Culture , New York and London,1984, p14.David Roxburch, On the Trans Mission and Reconstruction of Arabic Calligraphy Ibn al Bawwab and history , Studia Islamic , vol, 96, 2004,p41. Vladimir Minorsky , The Turks Iran and the Caucasus in the Middle Ages, London, 1978 , p282 .

(٤) الاصطخرى: المسالك والممالك، ص١٧٨

(٥) مرتضى راوندى: تاريخ اجتماعى ايران، بخش دوم، جلد هشتم، جابخانه نوبهار، ١٣٧٤، ص١٠٣

(٦) السمعانى: الأنساب، جـ٥، ص١٨

من أهم أنواع الكاغد السمرقندى؛ الكاغد المنصورى المشهور بخراسان، وهذا النوع ينسب إلى أبى الفضل منصور بن نصر بن عبد الرحيم بن مت بن بحير الكاغدى وهو من أهل سمرقند، توفى سنة (٤٢٣هـ/ ١٠٣١م)[١] والكاغد الحسنى ينسب إلى أبى على الحسن بن ناصر الكاغدى، ويتسم الكاغد المنسوب إليه بجودة الصنعة حتى أن السمعانى يقول عنه: إنه لم يلحقه من سبقه فى جودة الصنعة[٢].

من الظواهر الثقافية التى تأثرت بشكل كبير بظهور الورق عملية الترجمة، التى تطورت فى القرن الرابع الهجرى الذى ازدهرت فيه الحضارة الإسلامية ونمت وبلغت غايتها من الإنتاج الواسع فى شتى ميادين العلوم والآداب[٣].

فنشأت حركة ترجمة العلوم إلى العربية فى البداية على يد غير العرب ثم تولاها العرب أنفسهم، وأتت هذه الحركة ثمارها حين هضم العرب هذه العلوم ثم تجاوزوا هذه المرحلة إلى مرحلة التأليف[٤] حيث كانت ملكات المسلمين قد بلغت درجة عظيمة من النضج واتسع أفق الفكر الإسلامى وخاصة فى مدن إقليم الصغد خلال العصر السلجوقى[٥] فالفرس أصحاب

---

(١) الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ١٧، ص٣٦٨. السبكى: طبقات الشافعية الكبرى، جـ٤، ص١٩٠. السمعانى: المصدر نفسه، جـ٥، ص١٩ مرتضى راوندى: المرجع نفسه، ص١٠٤

(٢) السمعانى: المصدر نفسه، جـ٥، ص١٩

(٣) ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة المعهد الفرنسى، القاهرة، ١٩٥٥، ص١

(٤) عبد العظيم حنفى صابر وعبد الحليم منتصر: موجز تاريخ الصيدلة، جـ٢، ص٣١٢

Gibb ,Arabic literature, p35

(٥) عبد النعيم محمد حسنين: إيران والعراق فى العصر السلجوقى، ص١٨١

ملك قديم وحضارة عريقة ومعرفة تامة بالعلوم والآداب، كان لهم علم وأدب يتناسبان مع ضخامة ملكهم وعظم سلطانهم، فهم الذين ورثوا الآشوريين والبابليين فى الرياضيات، وكانت لهم كتب فى جميع فروع العلم، كما أنهم نقلوا إلى لغتهم كثيرا من علوم الهنود[1].

ويعد كتاب "سندبادنامه" من أروع القصص والحكايات المشتملة على المواعظ والنصائح والحكم فى سيرة الملوك. وكان باللغة الهندية، جمعه حكماء الفرس للملوكهم، فنقله إلى الفارسية عميد الفوارس الفناورزى فى سنة (٣٨٩هـ/ ٩٩٨م) بأمر الأمير نوح ابن منصور السامانى، وكان مشوش الألفاظ والعبارة خاليا من السلاسة، فهذب عباراته وغيرها بلفظ صريح ظهير الدين محمد بن على بن محمد بن الحسن الكاتب السمرقندى وذلك بعد سنة (٥٥٦هـ/ ١١٦٠م) وجعله باسم السلطان قلج طمغاج خان بن قراخان برهان مسعود[2]. ولاشك أن حركة الترجمة لعبت دورا كبيرا فى النهضة العلمية فى تلك العصور الزاهية وتأثرت بشكل مباشر بظهور الورق وأثرت فيه .

عبر تطور الكتابة مرت موادها بمراحل متعددة فى فترة العصور القديمة، وقبل أن يعرف أهل الصغد وسائر العرب الأقلام كانوا يستعملون عدة مواد للكتابة ومنها الآلة الحادة ذات الرأس المدبب فى الكتابة على الألواح الطينية والحجارة والخشب[3]. وفى عصر الجاهلية استخدموا القلم فى التدوين،

---

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد: دور الفرس فى بناء الحضارة الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٥م، ص٦٧

(٢) محمد عوفى: لباب الألباب، ص٨٦ . آغا بزرك الطهرانى: الذريعة إلى تصانيف الشيعة، جـ١٢، ط٢، بيروت، ص٣٥. ذبيح الله صفا: دور نمايى از فرهنك ايرانى واثر جهانى آن جلوه هائى از هنر ايران، تهران، ١٣٧٥، ص١٢٥ .

(٣) خيال محمد مهدى الجواهرى: من تاريخ المكتبات فى البلدان العربية، ص٧٧.

وكان مصنوعا من القصب يقط ويقلم أو يبرى ثم يغمس فى مواد الدواة ويكتب به[1].

وتتعدد مسميات القلم الذى هو أداة للكتابة، فمنها المِذبَر أو المِزبَر الذى يزبره أى يكتب به، وكذلك جاءت الكلمة بمعنى الكتب فى القرآن الكريم فى قوله تعالى " وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ الأَوَّلِينَ "[2]. وقيل يراع والمرقم ولكن أكثرها شيوعا القلم، وتعددت الآراء كذلك حول اشتقاق هذه التسمية، فقيل القلم لأنه قلم أى قطع وسوى كما يقلم الظفر، وكذلك قيل للسهام أقلام[3] قال تعالى " إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ "[4].

تشير الآيات القرآنية والأحاديث النبوية إلى أهمية القلم، ويقال أول ما خُلق القلم، أو أن أول ما خلق الله اليراع ـ القصب ـ ثم خلق من اليراع القلم، ولذلك فإن القلم أشرف أدوات الكتابة وأعلاها رتبة، وغيره من الآلات الكتابة كأعوان، ويؤكد ذلك الشرف أن الله تعالى أقسم به قائلا "ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ"[5]. كما ربط النص القرآنى بين القلم والتعليم فقال تعالى: " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ، خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ "[6]. وقال تعالى " وَلَوْ أَنَّمَا فِى الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ "[7].

---

(١) محمد عبد الستار عثمان: دور المسلمين فى صناعة الأقلام، دراسات آثارية إسلامية، مج٤، القاهرة، ١٩٩١، ص١٧٥.

(٢) الشعراء: آية١٩٦ .

(٣) يحى وهيب الجبورى: الخط والكتابة فى الحضارة العربية، ص٢٨٦، ٢٨٥.

(٤) آل عمران: آية ٤٤.

(٥) القلم: آية١ .

(٦) العلق: آية ١ـ٥

(٧) لقمان: آية٢٧

كان لنزول القرآن باللغة العربية وانتشار الإسلام ثم ما صاحب ذلك من مراحل تحول حضارية كالترجمة ومعرفة أهل سمرقند بصناعة الورق وظهور مواهب الخطاطين المسلمين، أثر كبير فى تطور صناعة القلم، واستخدم لب الجريد الأخضر فى صناعة الأقلام، لكن استخدام القصب فى صناعتها كان سائدا لما لها من مزايا، فالأقلام المصنوعة من القصب تظهر قواعد الخط وهى سهلة الاستعمال وطوع يد الكاتب يقطعها كما يشاء بحسب حجم الكتابة ونوع الخط[١]، وخير الأقلام ما كان طوله ستة عشر إصبعا إلى اثنى عشر، وامتلاؤه ما بين غلظ السبابة إلى الخنصر، وهذا وصف جامع لسائر أنواع الأقلام على اختلافها[٢].

كانت المقلمة والمدية والدواة من متعلقات الأقلام، والمقلمة هى التى توضع فيها الأقلام أما المدية فهى السكين وقيل مسن الأقلام. وأما الدواة فقيل عنها إنها أم آلات الكتابة التى لا غنى للوراق عنها وهى الآنية التى يوضع فيها الحبر، فالدواة هى المحبرة[٣] ومن هذه الأدوات أيضا المداد والحبر، وسمى المداد بذلك لأنه يمد القلم أى يعينه[٤] وورد ذكره فى القرآن الكريم فى قوله تعالى" قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا [٥]. أما الحبر فأصله اللون، وسمى

(١) محمد طاهر بن عبد القادر الكردى: تاريخ الخط العرب وآدابه، ص٩٨. محمد عبد الستارعثمان: دور المسلمين فى صناعة الأقلام، دراسات آثارية إسلامية، مج٤، القاهرة، ١٩٩١، ص١٧٥.

(٢) يحى وهيب الجبورى: الخط والكتابة فى الحضارة العربية، ص٢٨٨.

(٣) شعبان عبد العزيز خليفة: الكتب والمكتبات فى العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٩٧، ص٢٠٤.

(٤) هالة شاكر: الورق والوراقون، ص١٥٨، ١٥٧. يحى وهيب الجبورى: المرجع نفسه، ص٢٩٢.

(٥) الكهف: آية ١٠٩.

المداد الحبر، وسمى الحبر حبراً لتحسينه الخط، على أن الذى يهمنا هو أنواع المداد وما يناسبها من مواد الكتابة، فكان حبر الدخان أنسب ما يكون للكتابة به على الكاغد فى سمرقند وسائر مدن الصغد[١].

خلاصة القول تعددت آلات الكتابة وأدواتها التى تعين الوراق على القيام بمهامه ما بين أوراق وأقلام ومداد ومتعلقاتها. هكذا لعبت أدوات الكتابة دوراً بارزاً فى إثراء الحياة الثقافية التى شهدها ذلك العصر .

رافق صناعة الورق وازدهارها ظهور طائفة من الناس يعملون بالورق والكتابة والكتب، وهؤلاء هم الوراقون[٢]، الذين لعبوا دورا مهمًا فى تاريخ الحضارة الإسلامية، ذلك أن الوراقين آنذاك كانوا هم الناشرون للكتب يقومون بنسخها وتجليدها وتصحيحها وبيعها وعرضها فى الواجهات والاتجار بها[٣].

والوراقة من أجود الصنائع لما فيها من الإعانة على كتابة المصاحف وكتب العلم ووثائق الناس وعهدهم، وعلى الوراق أن يعلم أن من يشترى الورق يشتريه لكتابة كتب العلم ويمتنع عن بيعه لمن يعرف أنه يكتب ما لا ينبغى من البدع والأهواء[٤]، واشتغل بالوراقة علماء أجلاء، وأصبحت

(١) خيال محمد مهدى: من تاريخ المكتبات فى البلدان العربية، ص٧٩. عفيف البهنسى: معجم مصطلحات الخط العربى والخطاطين، ص١٢٧ .

(٢) كان مصطلح وراق فى بدايته يعنى الناسخ الذى ينسخ الكتب بخط يده ثم تطور بعد ذلك ليعنى دوراً أكبر يرادف مصطلح الناشر فى عصرنا الحالى . شعبان عبد العزيز خليفة: الكتب والمكتبات فى العصور الوسطى، ص١٤٩ .

(٣) التنوخى: نشوار المحاضرة، تحقيق عبود الشالجى، جـ١، ١٩٧٢/١٩٧١م، ص٣. سعيد أحمد حسن: أنواع المكتبات فى العالمين العربى والإسلامى، عمان، ١٩٨٤، ص٩. عصام الدين عبد الرؤف الفقى: الحواضر الإسلامية، ص٢٤٢ .

(٤) السبكى: معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد على النجا وأبى زيد شلبى ومحمد أبى العيون، ط٢، القاهرة، ١٩٩٣، ص١٣٢ .

الوراقة مـهنة مهمة، وانتـشرت دكاكـين الوراقين فى طول البلاد وعرضـها، وأصبح للمؤلفين المشهورين وراقون يخـتصون بهم وأصبحت دكاكينهم أماكن ثقافية يرتادها الأدباء وتعقد فيها المناظرات وتدور فيها المناقشات[١]. ومع كثرة الورق وانتشار استعماله فى سمرقند كان من الطبيعى أن تقام حوانيت وأسواق الوراقة لبيع الورق ومستلزماته ولتسويق ما تنتجه معامل الورق[٢].

أما عن طبيعـة الأنشطة والممارسات التى كان سوق الوراقـين يمارسها، فلم تكن هذه الدكاكين مقصورة على تجـارة الكتب والصفقات التجارية ونسخ الكتب[٣]، وإنما كان للوراقين أبعـاد فى الحياة الثقافية وتحـولت أسواقهم إلى مراكز للنشاط العقلى وحـوانيتهم مستودعا لكل ما أنتجتـه القريحة العربية فى شتى فروع المعرفة[٤]، فكانت بلا شك مسرحا للثقافة والحوار العلمى، عندما آمها المثقـفون والأدباء، واتخذوا منها مكانا لاجتمـاعاتهم وأبحاثهم[٥]، ولم

---

(١) شعبـان عبد العزيز خليـفة: المرجع نفسه، ص١٥٢. محـمد ماهر حمـادة: المكتبات فى الإسلام نشأتها وتطورها ومصائرها، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٨، ص٧٥.

(٢) هالة شاكر: الورق والوراقون، ص٢٠٠.

(٣) أحمـد شلبى: التـعليم والتربيـة عند المسلمين، مج١، الهـيئـة المصرية للكـتاب، ١٩٨٥، ص٦٥.

(٤) عبـد الستار الحلوجى: الكتـاب العربى المخطوط فى نشأته وتطوره إلى آخـر القرن الرابع الهجرى، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج١٣، جـ١، ١٩٦٧، ص٣٠١.

(٥) سعيد أحمـد حسن: أنواع المكتبات فى العالمين العربى والإسلامى، ص١٠. عـبد الستار الحلوجى: دراسات فى الكتب والمكتـبات، ط١، السعودية، ١٩٨٨، ص١٩. عـبد النعيم محمـد حسنين: دولة السلاجقة، ص١٧٢. ول ديورانت: قصـة الحضارة، جـ٢، مج٤، ص١٧٠. يوسف محـمود: الإنجـازات العلمية فـى الحضارة العلمـية، ص٧٩. حـبيب الزيات: الوراقة، مجلة المشرق، سنة ٤١، ١٩٤٧، ص٣٤٩. عمر أحمد غنام: المؤسـسات التربوية، مجلة الثقافة الاسلامية، العدد ٤٠، ١٩٩١، ص١٧٠.

يكن بائعو الكتب مجرد تجار وإنما كانوا ذوى ثقافة يسعون للذة العقلية من وراء هذه الحرفة التى كانت تتيح لهم القراءة والاطلاع، وتجذب لدكاكينهم العلماء الأدباء[١].

ومن ناحية أخرى ارتبطت مهنة النسخ بالوراقة، فكان النسخ من أهم مصادر الحصول على الكتب، حيث كانت أغلب المكتبات لديها نساخ يتناوبون العمل فيها، وكذلك الحال مع أغلب المؤسسات، حتى انه وجد عند بعض الأفراد نساخ ينسخون لهم الكتب لحسابهم الخاص، وكان بأغلب المكتبات غرفة أعدت لجلوس النساخ وممارستهم عملهم، وزودت تلك الغرف بمستلزمات النسخ من أساس وتجهيزات ومحابر وأقلام وورق. ولم يكن باستطاعة أى إنسان أن يحترف النسخ إذ إن الشرط الأول لهذه المهنة جودة الخط ووضوحه وصحته، كذلك كان هناك من يضبط ويراقب عمل النساخ، فالتصحيح والمقابلة من أهم المميزات التى تميز مخطوطًا عن مخطوط[٢].

ومما يجدر الإشارة إليه هنا أن مهنة الوراقة رغم أهميتها العظمى وأن عددًا كبيراً من العلماء والفضلاء والصلحاء اشتغلوا بها، فإنها كانت من المهن المتعبة والمكروهة[٣] لدى البعض، وكثيرا ما اعتقدوا أن الوراقة سبب لحرمان الرزق، وهذا الرأى وإن كان يتسم بالواقعية فى بعض جوانبه، فإنه لا يمكن الاعتماد عليه إطلاقا فى ظل اتفاق المصادر على أهمية هذه المهنة ومن يعمل بها، ويقول أحد الوراقين المتذمرين من هذه المهنة:

---

(١) أحمد شلبى: المرجع نفسه، مج١، ص٦٥. حسين على المسرى: تجارة العراق فى العصر العباسى، ص١٣١. سعيد إسماعيل على: معاهد التربية الإسلامية، ص٤٧٦. فليب حتى: تاريخ العرب، جـ٢، ص٥٠٢.

(٢) محمد ماهر حمادة: المكتبات فى الإسلام، ص١٧٥.

(٣) محمد ماهر حمادة: المكتبات فى الإسلام، ص١٧٩.

إن الوراقـــة حـرفـة مـذمومة مخـــرومة يمشى بها زمـن

إن عشت عشت وليس لى أكل أومت مت وليس لى كفن[1]

وقال ابن صارة الأندلسى:

أمـا الـوراقة فهى أنكد حـرفةٍ أغصـــانها وثمارها الحرمـــان

شبهت صـاحبها بإبـرة خائط تكسو العراة وجسمها عريان.

سئل وراق عن حاله فقال: عيشى أضـيق من محبرة. وجسمى أدق من مسطرة، وجاهـى أرق من الزجاج، ووجهى عند الناس أشد سـوادا من الحبر بالزاج، وحظى أخفى من شق القلم، ويداى أضعف من قصبة، وطعامى آمر من العـفص، وشرابى أحـر من الجمـر، وسـوء الحال ألزم لى من الصـمغ. فعبرعن حاجاته وشؤونه بأدوات صناعته[2]، مما يدل على أن هذه المهنة شاقة وأن عائدها بسيط.

حفلت قوائم الوراقين بأسماء شخصيات لامعة منها الشيخ أبى الفضل منصور بن نصـر ابن عبد الرحـيم بن مت السمـرقندى الكاغدى أستـاذ شيخ الإسـلام أبى بكر جواهر زاده، (ت٤٢٣هـ/ ١٠٣١م) كـان بارعا فى صناعـة الورق وبيعه، وإليـه ينسب الورق العالى المنصورى[3]. وحدث عنه طاهر بن أحـمد بن عـلى بن محـمـود أبو الحـسين القـاينى الفـقـيه الشـافـعى نزيل دمشق(ت٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م)[4].

---

(١) شعبان عبد العزيز خليفة: الكتب والمكتبات فى العصور الوسطى، ص١٧١.

(٢) عيسى اسكندر المعلوف: خزائن الكتب العربيـة وعلم وصف مخطوطاتها، مجلة المجمع العلمى العربى، مج٣، ١٩٢٣، ص٢

(٣) الذهبى: سيـر أعلام النبـلاء، جـ١٧، ص٣٦٨. السبكى: طبـقات الشافـعيـة الكبرى، جـ٤، ص١٩٠. طاش كبرى زاده: طبقات الفقهاء، ص٧٨.

(٤) الذهبى: تاريخ الإسلام، ،جـ٣١، ص ١٢١

وكان من المهن التى لها علاقة بالوراقة دلال الكتب، وكان أبو القاسم إسماعيل بن أحمد بن عمر السمرقندى المتوفى ببغداد سنة (٥٣٦هـ/ ١١٤١م) محترفا لبيع الكتب وكان دلالاً محظوظًا؛ فذات مرة اشترى صحيح البخارى وكتابا آخر بدينار وقيراط، فباع الكتاب الآخر بدينار، وصحيح البخارى بعشرين دينارًا[١]. ومن الوراقين المشهورين أبو على الحسن بن ناصر الكاغدى، المعروف بالدهقان، إليه ينسب الكاغد الحسنى الذى لم يلحقه من سبقه فى جودة الصنعة، كان يحضر المجالس التى أملها السمعانى بسمرقند، ووصفه السمعانى فقال: " كان سديد السيرة صدوق اللهجة فقيهًا، سمع جماعة من العلماء وبلغ أوان الرواية "[٢].

ومن الوراقين الذين ذاع صيتهم أبو منصور بن محمد بن سليمان بن قتلمش بن تركانشاه السمرقندى الأصل البغدادى (ت ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م) كان من كبارالعلماء وهو من بيت الإمارة، خلف له والده أموالا كثيرة فضيعها فى القمار واللعب بالنرد، واضطرته ظروف الحياة لممارسة الوراقة وامتهانها بغية التكسب والعيش. فكان يورق بأجرة بخطه الجميل الصحيح المعتبر فكتب كثيرا من الكتب[٣].

---

(١) الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ٢٠، ص٣٠. ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، جـ٨، ص٣٥٧، ٣٥٨. الصفدى: الوافى بالوفيات، اعتناء يوسف فان اس، دار صادر، بيروت، جـ٩، ١٩٧٤، ص٨٨ ابن الفوطى: مجمع الآداب فى معجم الألقاب، تحقيق محمد الكاظم، مج١، ١٤١٦، ص ٤٨٣، ٤٨٤.

(٢) السمعانى: الأنساب، جـ٥، ص١٩. الصفدى: المصدر نفسه، جـ١٢، ص٢٨١. القرشى: الجواهر المضية، جـ٢، ص٩٤. النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص٣٣.

(٣) السيوطى: بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم، جـ١ بيروت، ص١١٥. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، ص١٠٢. المنذرى: التكملة لوفيات النقلة، مج٣، ص٩٨.

صفوة القول ساعدت حوانيت الورق وأسواقه على رفع مستوى الثقافة وإيجاد طبقة من المثقفين على درجة عالية من النضج والتفوق العلمى، فكانت بمثابة مكتبة عامة يتاح فيها القراءة والاطلاع، وساهم الوراقون مساهمة فعالة فى إرساء صرح الحضارة الإسلامية بصورة تعكس نشاطا فكريا وجانبا مضيئا فى تاريخ الحضارة الإسلامية. وكان من الطبيعى أنه حيث قامت صناعة الكاغد قامت أسواق الورق والوراقة.

رغم اتفاق المصادر وإجماعها على اهتمام السلاجقة بالعلم والعلماء وأن دولتهم كانت إيذانا بنهضة علمية واسعة، ففى نفس الوقت لا يمكن نفى أن العلم تأثر فى هذا العصر بالتطورات والتغيرات السياسية والعقائدية كثيرا، مع ملاحظة أن هذا التاثير السلبى لم يشمل كافة مناحى العلم، وانما اقتصر على بعض العلوم ولاسيما الفلسفة. وهذا ما يناقش خلال السطور التالية.

لا شك أن الحياة الثقافية ترتبط بالأوضاع والتطورات السياسية والعقائدية والاقتصادية والحاصل أن هذه الأوضاع أدت إلى خروج العلم عن محوره الحقيقى، وهو البحث فى حقائق الأشياء، كما آلت إلى انحطاط مستوى تفكير العلماء وضياع أوقاتهم فى الخصومات بينهم وشيوع العصبية وضيق الأفق، وأصبحت الحكمة والفلسفة أداة للمناظرة والجدل بين أصحاب المذاهب(١).

يقول قاسم غنى: "إنه منذ استيلاء العناصر التركية على البلاد الإسلامية وشيوع الأوهام والخرافات، وضيق الفكر وظهور روح اليأس التى كانت تجرى كالسم الزعاف فى أجسام المفكرين قد قوت جذور الضعف

---

(١) أحمد كمال الدين حلمى: السلاجقة، ص٢١٥. عبد النعيم محمد حسنين: إيران والعراق فى العصر السلجوقى، ص١٧٢.

الأخلاقى والمعنوى والانحطاط العلمى والاجتماعى، ومهدت السبيل للتدهور تدريجيا"[1].

رجحت العلوم الدينية كالحديث والفقه والعلوم الشرعية، وكانت مورداً لحاجات العامة وضرورية لهم، فى حين أن سائر العلوم ولاسيما الفلسفة كانت تعتبر من العلوم المستظرفة، إذ كانت العلوم الدينية فى القرن السادس أكبر العوامل لتهيئة المعاش للأفراد، أى أن الإنسان كان بإمكانه أن يصل بمعرفة العلوم القرآنية والفقه والحديث إلى منصب القضاء والوعظ والإمامة ورواية الحديث والتذكير والتدريس فى المدارس، وأن يقترب من الملوك والأمراء ويكون موضعا لاحترام الناس والإعجاب والحصول على رفاهية العيش، بينما كان المشتغلون بالعلوم الفلسفية يعيشون فى الفقر والبؤس، وكانت علومهم وحكمتهم سببا لتعاستهم ونكبتهم[2]. وهذا الرأى يتسم بالواقعية فى بعض جوانبه إلا أنه لا يمكن الاعتماد عليه إطلاقا فى ظل اتفاق المصادر على النهضة الثقافية التى شملت مدن الصغد وسائر ما وراء النهر خلال العصر السلجوقى .

لما كان السلاجقة على مذهب السنة ويغلب عليهم التعصب ضد الشيعة[3] فارتبط الوضع الدينى ارتباطا مباشرا بالوضع السياسى، فلم تكن

---

(١) قاسم غنى: تاريخ التصوف فى الإسلام، ترجمة صادق نشأت، القاهرة، ١٩٧٠م، ص٦٧٦.

(٢) قاسم غنى: المرجع نفسه، ص٦٧٨. مريزن سعيد مريزن عسيرى: الحياة العلمية فى العراق، ص١٥١.

(٣) ابن شهراشوب: معالم العلماء فى فهرست كتب الشيعة وأسماء المصنفين، تتمة كتاب الفهرست للطوسى، طهران، ١٩٣٤م، ص٩. حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامى، ص٥٧٨.

Dwight Donaldson, The Shi'ite Religion ,London, 1933, p292.Pope , A survey of Persia Art ,vol,1,p89

الاختلافات بين سنة وشيعة فقط بل ظهر تناحرها فى المذهب الواحد، فالشافعية والحنفية كانت بينهما مواقف عدائية سببت فتنًا داخلية[١] ومما ساعد على إشعال تلك الفتن أن حكام السلاجقة كانوا حنفيين، بينما وزراؤهم ينقسمون إلى حنفيين وشافعيين، ومن ثم شاعت العصبية بين الحنفية والشافعية فى عهدهم[٢] فى مدن إقليم الصغد وبلاد ما وراء النهر، فعلى سبيل المثال كان عميد الملك وزير طغرلبك شديد التعصب للحنفية الماتريدية ـ المذهب الغالب فى الصغد وما وراء النهر ـ ضد الشافعية الأشعرية، وبلغ من تعصبه أنه لعن الأشاعرة على المنابر[٣]، ولما مات طغرلبك سنة (٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م) تولى السلطنة بعده ابن أخيه ألب أرسلان[٤] واستوزر نظام الملك، الذى أبطل ما كان يفعله الوزير عميد الملك قبله من سب الأشاعرة، وانتصر للشافعية[٥]. وشجع التعليم وافتتح العديد من المدارس وجعلها وقفا للمذهب السنى الشافعى، وكان لهذه المدارس أثرها فى تثبيت

---

(١) المقدسى بن القيسرانى: صفوة التصوف، ص٣٥.

(٢) طه ندا: فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية، بيروت، ١٩٧٦، ص١٥٤. مصطفى صدرى: شرح حال رجال ومشاهير نامى ايران، تهران، ١٣٧٤، ص٢٥٠.

Juli Scott Meisami , Persian Historiography to the End of the Twelfth Century ,London, 1999,p143.Var Javand of Iran , Islamic Period , vol,2 , London ,2001,p86

(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٥٤. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص٦٤.

(٤) حمد الله المستوفى: تاريخ كزيده، ص٩٧.

Harrison Sherein,Persia, Oxford,1945, p257 . Sourdel , La civilisation de l 'Islam Classique, p101

(٥) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ١٠، ص٣٣ . السيوطى: تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم الشماعى الرفاعى ومحمد العثمانى، بيروت، ١٩٨٦م ص٤٧٨. النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، جـ٢٦، ص٣٣٣.

قواعد المذهب السنى[1] ودحض المذهب الشيعى. وأصبحت هذه المدارس مما يدعو للأسف سببا فى إيجاد فجوة بين السنة والشيعة من ناحية، والشافعية والحنفية من ناحية أخرى[2].

يعتبر النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى حتى بداية القرن السابع الهجرى من أكثر الفترات التى اشتدت فيها الخلافات المذهبية فى مدن الصغد[3]، بين السنة والشيعة والأشاعرة والمعتزلة والإسماعيلية، وكذلك النزاع بين أهل السنة أنفسهم الحنفية والشافعية، واختلاف وجهات النظر بين الفقهاء والفلاسفة بلغ أشده بحيث أدى الحال إلى حدوث الكثير من المخاصمات[4].

وساد الاضطراب الدينى والمذهبى وكثر المتعصبون، بحيث يرى المؤرخون أن هذه الفترة هى فترة وضع أساس انحطاط المدينة الإسلامية، وأن التشدد حل فيها مكان الحرية الفكرية، ومن ضمن محاولات الدولة للقضاء على الشيعة تلك المحاولة التى حدثت سنة (٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م) حيث استأصل بغراخان حاكم سمرقند وبلاد ما وراء النهر عروق الإسماعيلية من بلاده بقتله كل دعاة المستنصر والمستجيبين له، وكتب إلى سائر بلاده بقتل من يجدونه منهم[5].

---

(١) الجوينى: لمع الادلة فى قواعد عقائد أهل السنة والجماعة، تحقيق فوقية حسين محمود، القاهرة، ١٩٦٥، ص٢٢.

Bosworth , The Islamic Dynasties,p117. Sevim and Bosworth , The Seljuqs and the Khwarazm shahs , History of civilization central Asia,Vol,4 ,p159 .

(٢) أحمد كمال الدين حلمى، عمر الخيام، مطبعة الخانجى، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٦٥.

(٣) أحمد كمال الدين حلمى: السلاجقة فى التاريخ والحضارة، ص٢١٥ .

(٤) ابن القيسرانى: صفوة التصوف، ص٥٢. قاسم غنى تاريخ التصوف فى الإسلام، ص٦٥٩ .

(٥) كامل مصطفى الشيبى: الفكر الشيعى والنزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثانى عشر،-

ثمة ملاحظة هامة فى دولة القراخانيين لم تبلغ فى دولة السلاجقة ما بلغته هناك، ألا وهى ظاهرة العداء بين بعض حكام تلك الدولة ورجال الدين، وأمدتنا المصادر بعدد من الوقائع التى تدل على ما اتصفت به هذه الخصومة من حدة، لكنها مع الأسف لم تلق الضوء على أسباب هذه الخصومة، فكان طمغاج خان إبراهيم(٤٤٤ - ٤٦٠ هـ / ١٠٥٢ - ١٠٦٨م) رغم ما عرف عنه من تدين شديد، قد اصطدم برجال الدين، وأمر بقتل أحد المشايخ وهو الإمام أبو القاسم السمرقندى[١].

ظلت الخصومة بين الحكومة فى سمرقند ورجال الدين مستعرة فى عهد شمس الملك ففى بداية عهده(٤٦١هـ/ ١٠٦٩م)أعدم الإمام أبو إبراهيم بن إسماعيل بن أبى نصر الصفار ببخارى، ويقول النسفى: "كان إماما فاضلا قوالا بالحق لا يخاف فى الله لومة لائم، قتله الخاقان صبراً لأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر"[٢]، ولم يتوقف النزاع بينهما ففى سنة (٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م) قتل الخاقان خضر بن إبراهيم السيد المرتضى ذو الشرفين أبو المعالى محمد بن محمد بن زيد العلوى البغدادى نزيل سمرقند[٣].

=بغداد، ١٩٦٦، ص٦٥ . محمد السعيد جمال الدين السعيد: دولة الإسماعيلية، المطبعة العصرية، بيروت، ١٩٩٩، ص٨١. محمد محمود إدريس: تاريخ العراق والمشرق الإسلامى، ص١٦٣.

(١) بارتولد: تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، ص٤٥٨، ٤٦١.

Michal Biran , Ilk khand , Encyclopedia Iranica , vol ,12,p623

(٢) النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص٤١٠. بارتولد: تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، ص٤٦٤

(٣) الذهبى: تذكرة الحفاظ، جـ٤، ص١٢٠٩، ١٢١١. ابن العماد: شذرات الذهب، جـ٣، ص٣٦٥. أبو عبد الله الدمشقى الصالحى: طبقات علماء الحديث، جـ٣، ص٤٠٠، ٤٠٣. اليافعى: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، جـ٣، ص ١٣٢، ١٣٣.

من ناحية أخرى تدخل العلماء من أصحاب المذاهب والفقهاء فى شؤون الحكم والسياسة، ففى سنة (٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م) أفتى الفقهاء بقتل الخان أحمد حاكم سمرقند لذندقته فخنق وجلس ابن عمه مسعود مكانه[١]. ويعد هذا الحادث أقصى ما بلغه نفوذ علماء الدين فى تدخلهم ضد الحكومة .

فلم تكد تهدأ الخصومة بين الحكومة فى سمرقند ورجال الدين إلا وتشتعل من جديد، فكان للإمام الصفار الذى قتله الخان شمس الملك، ابن" يدعى: أبو اسحق إبراهيم بن إسماعيل، كان مثل أبيه فى اجتناب المداهنة وقمع السلاطين وقهر الملوك حتى أخذه السلطان سنجر معه إلى مرو وأسكنه فيها لتوطيد الاستقرار ببلاد ما وراء النهر. وقتل أرسلان خان حاكم سمرقند السيد الأجل أبا المكارم الأشرف بن محمد بن حمزة بن الحسن بن على بن عبيد الله بن العباس بن على بن أبى طالب وذلك سنة (٥٢٣هـ/ ١١٢٨م)[٢] ولم يلبث أن أصيب أرسلان خان فى أواخر حياته (٥٢٤هـ/ ١١٢٩م) بالفالج، فأشرك ابنه نصر فى الحكم، وحيكت ضد الحاكم الشاب نصر مؤامرة على رأسها اثنان، هما: الفقيه المدرس أشرف بن محمد السمرقندى من العلويين، والآخر هو رئيس مدينة سمرقند، فقاما باغتيال نصر منتهزين غياب أرسلان خان، فاستغاث الأخير بالسلطان سنجر واستدعى ابنه الآخر أحمد وخرج الفقيه والرئيس لاستقباله، فأمر الخان أحمد بالقبض عليهما وبقتل الفقيه فى الحال[٣].

كان العداء والخصومة على أشدهما بين السنة والشيعة منذ القرن الخامس الهجرى الذى يمثل قمة التمزق للدولة الإسلامية، ويؤكد ذلك ما

---

(١) الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ١٩، ص١٢٨، ١٢٧. السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص ٨٥. ابن الوردى: تاريخ ابن الوردى، جـ٢، ص٧.

(٢) النسنى: المصدر نفسه، ص٩٣.

(٣) النويرى: نهاية الآرب فى فنون الأدب، جـ٢٦، ص٣٨٣.

قاله نظام الملك: إنه أرسل شمس الملك حاكم سمرقند رسولاً إلى دولة السلاجقة ليستطلع أمر السلاجقة، ولما رجع إليه الرسول أخبره بأن دولة السلاجقة دولة قوية ولكن بها عيب وهو أن وزير سلطانها رافضى[1]. وعرف ذلك من الخاتم الذى كان يلبسه نظام الملك فى إصبع يمناه[2] ويحكى نظام الملك أنه كتب إلىّ أن اشتر الفقيه من فوره" لقد انبسط اللسان فى شأنك هنا أمام شمس الملك وكتبت لك هذا لتكون على علم " فقلت من خشية السلطان وقلت فى نفسى: إنه ليضيق بالمذهب الشافعى صدراً وإن سمع أن القراخانيين وصمونى بأننى رافضى، وأنهم قالوا ذلك أمام خان سمرقند ما أمنتى على نفسى، فأنفقت ثلاثين ألف دينار ذهبا حتى لا يبلغ هذا القول مسمع السلطان "[3].

شاء القدر أن يقتل نظام الملك على يد أحد الفدائية بأمر حسن الصباح[4]، ثم لحق به السلطان ملكشاه وانخرطت الدولة السلجوقية فى عهد جديد من الضعف والانقسام، ولم تعد الدولة تخضع لسلطان واحد، بل يتنازعها أكثر من سلطان فى وقت واحد ومهدت، تلك الأحداث لزيادة نفوذ الإسماعيلية وأخرجوا يد النهب من جيب التهور، فقتلوا الأمراء

---

(١) الرافضة: هم الذين يتبرؤون من أصحاب النبى ﷺ ويسبونهم وينتقصونهم، ويكفرون الأئمة الأربعة على وعمار والمقداد وسلمان. القاضى أبو الحسين محمد بن أبى يعلى: طبقات الحنابلة، تعليق محمد حامد الفقى، جـ١، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٥٢، ص٣٣.

(٢) يقول نظام الملك: كان هذا الخاتم رهنا عندما غلبت أحد الأشخاص فى الشطرنج، ولعل رسول شمس الملك توهم أن الخاتم من طين أبيض كتب عليه اسم الإمام إسماعيل كتلك التى يسلكها دعاة الإسماعيلية فى أصابع من ينتمون إلى مذهبهم . نظام الملك: سياست نامه، ص١٣٢.

(٣) نظام الملك: المصدر نفسه، ص١٣٢.

(٤) ميرخواند: روضة الصفا فى سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، ص٢٤٤.

والمشاهير[1]، ولم يكفوا أيديهم عمن يريدون قتله لانشغال السلاطين عنهم، فمن جملة فعلهم ما حدث سنة (٤٩٨هـ/ ١١٠٤م) عندما تجمع الحجاج من خراسان وبلاد ما وراء النهر وغيرها من البلاد وساروا، فلما وصلوا قرب الرى أتاهم الباطنية وقت السحر فوضعوا فيهم السيف فقتلوهم عن آخرهم، وأخذوا جميع أموالهم[2].

ثم تكررت نفس الكارثة سنة (٥٥٢هـ/ ١١٢٨م) عندما خرجت طائفة كبيرة من أهل القلاع الإسماعيلية وقطعوا الطريق على القافلة العائدة إلى سمرقند، عند قومس، وقتلوا أكثر من سبعين نفسا من الحجاج والعلماء، كان منهم الفقيه الواعظ مجد الدين أحمد بن عمر بن محمد بن لقمان أبو الليث النسفى السمرقندى[3].

من ناحية أخرى تأثرت الحياة الثقافية فى إقليم الصغد منذ العصر السلجوقى بالتغيرات والتطورات السياسية تأثرا كبيرا، وكان القرن الخامس الهجرى يمثل قمة التمزق الذى وصلت إليه الدولة الإسلامية، وتفرقها إلى دويلات، ومن البديهى أن العلوم غالبا تتبع المقتضيات العصرية، فكانت تروج أو تتوقف بحسب مساعدة الأوضاع أو عدم مساعدتها[4] فأدى الانحلال والتفكك السياسى والخصومات والمنازعات الداخلية فى إقليم الصغد منذ القرن الخامس حتى القرن السابع الهجرى إلى متاعب كثيرة، وصارت سمرقند هدفا للهجوم والسلب، الأمر الذى أدى إلى الاضمحلال الثقافى فى فترات الاضطرابات السياسية. فكان للتمزق السياسى الذى تعرضت له مدن الصغد

---

(١) ميرخواند: المصدر نفسه، ص٢٤٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص٨٤. ابن الساعى: مختصر أخبار الخلفاء، القاهرة، ١٣٠٩، ص٩٣. أبو الفدا: المختصر فى تاريخ البشر، جـ٢، ص٢٢٠.

(٣) الذهبى: تاريخ الإسلام، جـ٣٨، ص٧٧.

(٤) قاسم غنى: تاريخ التصوف، ص٦٧٨.

أثره الواضح فى تأخر الحياة الثقافية لانشغال الحكام عن مصالح الرعية بالصراع حول الحكم، والحق أن طبيعة البحث لا تقتضى تتبع المعلومات عن تلك الاضطرابات السياسية واستقصاء الحديث عنها، ويكتفى بالنماذج التى عرضت أثناء الحديث عن الحالة السياسية لما لها من تأثير سلبى فى الحياة الثقافية فى مدن الصغد خلال فترة الدراسة.

يمكن القول أن انتكاس الحضارة فى بلاد ما وراء النهر بصفة عامة وإقليم الصغد بصفة خاصة كان ناتجًا فى معظمه عن الكوارث السياسية التى مر بها، فكان مصير سمرقند بعد هذا الماضى التليد والتاريخ الحافل أن دمرت وانحطت مؤسساتها التعليمية وزالت من الوجود لما اعتراها من ضروب المحن والثورات وضعف الحكام، ومن ناحية أخرى ما أصاب المسلمين من جمود وتأخر؛ مما أدى إلى تقهقر الحياة العلمية.

كما كان لاضطراب الأحوال الاقتصادية فى إقليم الصغد أثرها الواضح على تأخرالحياة الثقافية خلال فترة الدراسة، فكما أسلفنا إن العلوم غالبا تتبع المقتضيات العصرية وتتأثر بها، ولعل من المناسب هنا الإشارة إلى بعض هذه الأزمات الاقتصادية وما لها من آثار سلبية على الحياة الثقافية؛ فيحدثنا ابن الجوزى عن انتشار الغلاء والوباء فى جميع البلاد سنة (٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م) ومات من الجوع خلق كثير، وورد كتاب من تجار بلاد ما وراء النهر أنه وقع فى هذه الديار وباء مسرف[١]، ومات بسمرقند فى الفترة من عاشر شوال إلى ذى القعدة مائتا ألف وستة وثلاثون ألفا[٢]. ويقول ابن الأثير: وجد ميت ودخل تركى يأخذ لحافا عليه، فمات التركى وطرف اللحاف بيده، وبقيت

---

(١) ابن الجوزى: شذور العقود فى تاريخ العهود، مخطوط بدار الكتب، رقم ٩٩٤ تاريخ، ميكروفيلم ٣٥٨٢٦، ص١٣١. الديار بكرى: تاريخ الخميس، ص٣٥٨. الذهبى: العبر، جـ٢، ص٢٩٣.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ٦١

أموال الناس سائبة[1]، وكان مؤدب أطفال عنده تسعمائة صغير فلم يبق منهم واحد[2]. ودونت عن هذا الوباء قصص مروعة وانتشرت المجاعة وعدمت الأقوات حتى أكل الناس الكلاب والقطط[3]، ومات فى هذا الوباء عدد" من العلماء، كان موتهم بلا شك خسارة للحياة الثقافية، ومنهم أبو الحسن على ابن عبد العزيز بن محمد بن أحمد بن حامد الديزكى الزبيرى من سلالة الزبير بن العوام (٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م) كان عالما وكذا آباؤه، وكان أبوه يعظ بسمرقند فى خان موسى[4]. والشيخ الإمام الزاهد الخطيب أبو محمد عبد الجبار بن أحمد الدارى كان أخر مجلس أملاه يوم الخميس من ذى القعدة سنة (٤٤٨ - ٤٤٩هـ / ١٠٥٦ - ١٠٥٧م) سنة الوباء العام، وتوفى بعده بقليل، ودفن فى الدار الجوزجانيه بسمرقند[5].

كان لعلماء سمرقند دور" فعال" فى المشاركة فى الأزمات وتخفيفها عن الناس، ولم يكونوا بمعزل عما يحدث فى المجتمع من تغيرات، ومما يؤكد ذلك ما قام به أبو المظفر ابن نصر بن أحمد بن محمد العابدى السمرقندى، عندما وقع قحط فى سمرقند، قال السمعانى: "كان أبوه دهقانا كثير المال وكان له ثلاثة مائة بعير تحمل غلاته وأمواله، وكان يعلم أنه لو فرقها على أهل سمرقند لم تكفهم، فوجد حلا وهو أن يخرج إلى درب سمرقند، ومن رأى من جلبة الطعام قال له: أعطيك درهمين وتحط من الثمن للناس وتبيع للناس بأقل من درهمين، فلم يزل كذلك حتى تراجعت الأسعار، ثم أخرج

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ ٩، ص٦٣٧.

(٢) ابن تغرى بردى: المصدر نفسه، جـ٥،ص ٦١.

(٣) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، جـ٤، ص١٨٠.

(٤) النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص٥٥٥.

(٥) النسفى: المصدر نفسه، ص٤٠٢.

غلاته فباعها بنصف السعر فتوسعوا. فقال الناس: هذا عابد وليس بتاجر، فلقب بالعابدى، وتوفى سنة (٤٦١هـ/ ١٠٦٨م) ودفن بجاكرديزه[١].

ولما حدث جدب وندر سقوط المطر فى سمرقند فى بعض الأعوام استسقى الناس مرارًا فلم يسقوا، فأتى رجل صالح معروف عنه الصلاح إلى قاضى سمرقند فقال له: إنى قد رأيت رأيا أعرضه عليك، قال: وما هو؟ قال أرى أن نخرج ويخرج الناس معك إلى قبر الإمام محمد بن إسماعيل البخارى ونستسقى عنده، فعسى الله أن يسقينا، فقال القاضى: "نعم ما رأيت" فخرج القاضى والناس معه، واستسقى القاضى بالناس وبكى الناس عند القبر، وتشفعوا بصاحبه، فأرسل الله تعالى السماء بماء عظيم غزير أقام الناس من أجله بخرتنك سبعة أيام أو نحوها، لا يستطيع أحد الوصول إلى سمرقند من كثرة المطر وغزارته[٢].

يتضح مما تقدم مدى ارتفاع مكانة علماء الدين فى نظر المجتمع، ومشاركتهم الفعالة فى تخفيف تلك الأزمات. ولا شك أن هذه الأزمات التى أسلفنا ذكرها أدت بما لا يدع مجالا للشك إلى ارتباك الحياة الثقافية فى مدن إقليم الصغد لانشغال العلماء بتلك الأزمات عن الإنتاج العلمى .

صفوة القول أن هذه العوامل أدت إلى تقهقر الحياة الثقافية فى مدن الصغد، ومع ذلك لا يمكن الربط بصورة مطردة بين الحياة السياسية والعقائدية والاقتصادية من ناحية والحياة الثقافية من ناحية أخرى، بمعنى ألا نربط بينهما ربطا يفهم منه أنه كلما وجد انحلال سياسى وخلافات دينية وأزمات اقتصادية وجد بالضرورة انهيار حضارى أو تأخر ثقافى، فليس شرطا

---

(١) السمعانى: الأنساب، جـ٤، ص١٠٧، ١٠٨.

(٢) السبكى: طبقات الشافعية الكبرى، جـ٢، ص٢٣٤. السمعانى: الأنساب، جـ٥، ص٣٨. ابن بشكوال: الصلة، جـ٣، دار الكتاب المصرى. دار الكتاب اللبنانى، ١٩٨٩، ص٩١٧.

أن تتحكم هذه العوامل تحكمًا كليًا فى الحياة الثقافية فى إقليم الصعد وإن كان لها أثر سيىء فى رقى العلوم والآداب .

ثانيًا: المؤسسات التعليمية فى مدن الصعد

حض الإسلام على العلم وجعل من الواجب على المرء أن يتعلم ما لم يعلم، وأن يعلم ما قد علم، ولا عجب أن كان للدين الإسلامى وتعاليمه الفضل فى دفع الناس إلى تعلمه وتسابقهم على الاستزادة منه، ومن ثم كان طبيعيًا أن يظهر فى أعقاب الاستقرار الإسلامى الكثير من المؤسسات التعليمية[1] فحفل إقليم الصعد بالمؤسسات التعليمية المختلفة خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين، والتى كان لها كبير الأثر فى إثراء الحياة الثقافية واتساع ثقافة العلماء وإلمامهم بمختلف العلوم والفنون الرائجة فى عصرهم وزيادة إنتاجهم العلمى .

وتعد الأسرة[2] المؤسسة التعليمية الأولى فى حياة الإنسان، واللبنة

---

(١)عبد الفتاح مصطفى غنيمة: نشأة المدارس وتطورها فى الحضارة العربية، منبر الإسلام، العدد ١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص٧٢.

(٢) الأسرة فى اللغة هى عشيرة الرجل ورهطه، وسميت بهذا الاسم لما فيها من معنى القوة حيث يتقوى بهم الرجل، والأسرة هى أيضًا الدرع الحصينة، وفيها معنى القوة أيضا، ذلك أن مادة " اسر" تعطى معنى القوة والشدة، فالأسر هو شدة الخلق، كما قال تعالى" نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ " الإنسان: آية ٢٨. وأسر الجندى عدوه يعنى شده بالاسار، والاسار هو كل ما يشد بالقيد . والأسرة فى نظر الشرع هى الجماعة التى ارتبط ركناها بالزواج الشرعى والتزمت بالحقوق والواجبات بين طرفيها، وما نتج عنهما من ذرية وما أتصل بهما من أقارب. والأسرة فى عرف الناس تطلق على كل جماعة بينها رباط من نوع معين. المقرى: كتاب المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير للرافعى، جـ١، ص٢٠،١٩. عطية صقر: موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، جـ١، ط٢، القاهرة، ١٩٩٠، ص٣٣.

الأولى فى بناء الهيكل الإنسانى العام أو الخلية الأولى فى جسم المجتمع البشرى، وكان للأسرة دور رئيسى فى غرس التربية الإسلامية التى ترتكز على الإيمان بالله ورسله والتحلى بالأخلاق الحميدة فى ذهن الطفل منذ نعومة أظفاره[١].

والأسرة بهذا الاعتبار هى مصدر العادات والتقاليد، فالأدب والنظام والتعاون والأمانة والتكسب والإيثار أول ما يصنع فى الأسرة، ويتلقاه الوليد مع لبن أمه وفى غنائها له وخدمته إياه، ويخرج إلى المجتمع مزودًا بكل التأثيرات والانطباعات التى تلقاها فى مجتمعه الأول تحت إشراف الوالدين[٢].

والأسرة أيضًا لخلق صفات جديدة فى الطفل أو الإسراع فى خلقها عن طريق القدوة والتقليد، كالنطق مثلاً وهو القوة الكامنة تبرزها الأسرة أو تسرع فى إبرازها بخلاف ما لوعاش فى غابة أوغير مجتمع إنسانى يشبه الأسرة المحدود، ويتعلم اللغة التى تمكنه من التعلم بخطوات سريعة، ويتلقى أصول العقيدة والأخلاق ويقوم بالعبادات المفروضة، ومن هذا المنطلق فالأسرة هى المدرسة الأولى، أو المصنع الأول لتخريج جيل أو نسل صالح لمتابعة التطور البشرى، ولا يجاريها أى تنظيم فى هذه الأولية[٣]. وقد وضح الرسول ﷺ الدور الخطير الذى تقوم به الأسرة وتأثيرها العظيم على عقيدة الطفل ونظرته إلى الحياة بقوله "ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه"[٤] فالطفل يولد سويًا لديه القابلية ليكون مسلمًا موحدًا

---

(١) رحيم كاظم محمد الهاشمى وعواطف محمد شنقارو: الحضارة العربية الإسلامية، ص١٤٧.

(٢) عطية صقر: المرجع نفسه، جـ١، ص٣٩.

(٣) عطية صقر: موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، جـ١، ص٣٩. عمر أحمد غنام: المؤسسات التربوية، مجلة الثقافة الإسلامية، العدد ٤٠، ١٩٩١، ص١٦١.

(٤) المنذرى: مختصر صحيح مسلم، تحقيق وتعليق مصطفى ديب البغا، ط٢، اليمامة للطباعة، دمشق، ١٩٩٦، ص٥٥٣.

لله لكن أبويه يجعلانه يهوديًا إذا كانا يهـوديين أو نصرانيًا إذا كانا نصرانيين، وهما يتحمـلان عاقبة فعلهمـا، فيثابان إذا جعلا أولادهما مـؤمنين صالحين، ويعذبان إذا حـالا بينهم وبين الإيمان وجـعلاهم كافـرين فاسـقين، ولا إثم عليهـما إن فعلا غـاية وسعهمـا لتنشئة الأولاد على الإيمان والعـبادة والخلق الحميد، وصار الولد طاغيا فاجرا[1].

وكان محمـد بن محمد بن الحسين المحدث عـبد الكريم بن موسى بن الشيخ بن مجـاهد العلامة أبو اليسـر البزدوى النسفى (ت٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م) شيخ الحنفية ببلاد ما وراء النهر خير ما يجسد ذلك فتلقى تعليمه الأولى على يد أبيه الذى لقنه تعاليم جده عبد الكريم الذى تلقاها بدوره عن ماتريدى، ثم درس أبو اليسر عـلى كبار علماء الحنفـية، وكان إمام الائمة والموفـود إليه من الآفاق، كثرت تصـانيفه فى الأصول والفروع، وكان قاضى قـضاة سمرقند، وكان يدرس فى الدار الجوزجانية ويملى فيها الحديث[2].

لا يقتـصر دور الأسرة علـى مرحلة الطفولة، بل يسـتمـر طيلة مراحل العمر، وإن كان يعظم أثره فى تلك المرحلة ثم إن الوالدين هما أول من يجنى ثمرات التربية الصالحة والتعليم النافع لأولادهم وذلك حين يكبرون ويصبحون بارين بهم[3].

هكذا اهتم المسلمـون بتربية وتعليم أولادهم، فـالطفل صورة عـائلته، وتربيـته على الفـضـائل والخلق الحمـيـد لا يمكن أن يكتسـبـها فى المعـاهد التـعليمـية، إنما يمـارسهـا الطفل يوم يعى الخطاب ويفـهم الكلام وتلك هى مسؤولية الوالدين .

---

(١) عمر أحمد غنام: المقال نفسه، ص١٦١.

(٢) الذهبى: تاريخ الإسـلام، جـ٣٤، ص ١٦٣، ١٦٤. البـزدوى: كـتاب أصـول الدين، تحقيق هانز بيترلنس، القاهرة،١٩٦٣م، ص ١٠، ١١.

(٣) عمر أحمد غنام: المقال نفسه، ص١٦٢.

١ - الكتاتيب[١]

تعد الكتاتيب من أقدم المؤسسات التعليمية وجوداً عند العرب، عرفت فى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام لتعليم صبيانهم القراءة والكتابة، لكن على نطاق محدود حيث اقتصرت على أبناء الأغنياء والوجهاء[٢].

كانت نشأة الكتاب وتطوره فى المقام الأول تجاوبًا مع أنشطة المدينة الإسلامية الجديدة، إذ كانت معرفة الكتابة باللغة العربية أمراً ضروريًا للتفقه فى الدين، كما كانت مؤهلاً أساسيًا لشغل المناصب الحكومية[٣]. وكان هناك نوعان من الكتاتيب، نوع يتعلم فيه الصبيان القراءة والكتابة ومبادئ الحساب، والنوع الثانى لتعليم القرآن الكريم ومبادئ الدين الإسلامى[٤].

ولا يعنى هذا بالضرورة أن كل كتاب كان من أحد هذين النوعين، بيد أن معظم الكتاتيب كانت تعلم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب والقرآن الكريم

---

(١) الكتاب اشتق اسمه من التكتيب وتعليم الكتابة، وهى المهمة التى اضطلع بها، ويؤيد ذلك ما ورد عند اللغويين من أن الكتاب موضع تعليم الكتاب، اى الكتابة. وذهب بعض اللغويون إلى أن الكتاب من مواضع التعليم ويرادف المكتب، بينما عبر البعض الآخر بأن الكتاب بمثابة موضع لتعليم الصبيان. ويظهر أن كلا من المكتب والكتاب استعمل كمكان لتعليم الصبيان. سعيد إسماعيل على: معاهد التربية الإسلامية، ص١٢٥. محمد الحسينى عبد العزيز: الحياة العلمية فى الدولة الإسلامية، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٣، ص٣٣،٣٢. المعجم الوجيز، مصر، ١٩٩٧، ص٥٢٧. ذبيح الله صفا: تاريخ تعليم وترتيب ايران از قرن هفتم تا قرن دهم، مجلة مهر، شماره دوم، سال جهارم، ١٣١٥، ص١٥٨.

(٢) رحيم كاظم محمد الهاشمى وعواطف محمد شنقارو: الحضارة العربية الإسلامية، ص١٤٧.

(٣) هشام نشابى: المدينة الإسلامية، ص٧٣.

(٤) أحمد شلبى: تاريخ التربية الإسلامية، ص٢٢-٢٥.

واللغة[١]، بحيث كان التركيز منصبا على القرآن الكريم والعلوم الدينية[٢].

لم يجر التعليم فى داخل المساجد، إذ لا يجوز أن يرتاد الأطفال المساجد لأن النبى ﷺ أمر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين لأنهم يسودون حيطانها ولا يتحرزون من النجاسات، وبالتالى أتخذ بعض المعلمين من الدروب وأطراف الأسواق والمناطق القريبة من المساجد والغرف الملحقة بها أماكن لتعليم الصبيان[٣].

أما عن أعمار الصبية الذين يرتادون الكتاتيب فكانت تتراوح بين الخامسة والسابعة عند الالتحاق[٤]، ويرى ابن سينا أن العام السادس من عمر الصبى هو المرحلة الملائمة لدخوله الكتاب وذلك بقوله: " وإذا أتى عليه من أحواله ست سنين فيجب أن يقدم إلى المؤدب والمعلم "[٥].

تنوعت مناهج الدراسة فى الكتاتيب فلم تكن واحدة فى العالم الإسلامى، بل اختلفت من قطر إلى آخر كما ذكر ذلك ابن خلدون " إن ما

---

(١) هشام نشابى: المرجع نفسه، ص٧٣.

Hillenbrand , Madrasahs Islamic Period ,vol.2 , p166.

(٢) بهروز رفيعى: تعليم وترتيب در اسلام، تهران، ١٣٧٨، ص١١٢.

Yamin Cheng , The Islamic Sciences and Question of the Modern Muslim Identity, the Islamic Quarterly,vol.47, no.1, 2003,p38.

(٣) أبو بكر السمرقندى: شرعة الإسلام إلى دار السلام، ص٨٥. جروينبام: حضارة الإسلام، ص٢٧٨. سعد مرسى أحمد و سعيد إسماعيل على: تاريخ التربية والتعليم ص ١٧١. ذبيح الله صفا: تاريخ تعليم وترتيب إيران از قرن هفتم تا قرن دهم، مجلة مهر، شماره دوم، سال جهارم، ١٣١٥، ص,١٥٧

(٤) أحمد فؤاد الاهوانى: التربية فى الإسلام، ص٥٩. عبد البارى محمد الطاهر: خراسان وما وراء النهر، ص١٦٣.

(٥) ابن سينا: القانون، جـ١، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٨٧٧م، ص١٥٧.

درسه الولدان اختلف من قطر إسلامى لقطر آخر، ولكن يلوح أن الدراسة اشتملت على القرآن وأحاديث الأخبار وبعض الأحكام الدينية والشعر، ومبادئ الحساب، وبعض قواعد اللغة العربية إلى جانب تعلم القراءة والكتابة والخط الذى كان له مدرسون مختصون، واستعمل الصبية الألواح فى الكتابة، وفى المغرب العربى اقتصر التعليم على القرآن الكريم، وفى الأندلس اعتمد على تعليم القرآن والشعر واللغة والخط، بينما كان أهل المشرق يخلطون فى تعليم أبنائهم بين القرآن والحديث والعلوم والخط[١].

كان لكل كتاب معلم واحد، ولكن فى بعض الحالات كان يشترك معلمان أو أكثر فى التعليم بالكتاب إذا كان عدد الصبيان كثيراً[٢] وكانت عادة الكتاتيب أن تبدأ يومها الدراسى منذ الصباح، فيذهب الصبى إليه مبكراً فيبدأ بحفظ القرآن ثم يتعلم الكتابة حتى الظهيرة فيعود إلى المنزل لتناول الغداء، ثم يرجع لمواصلة الدرس حتى أذان العصر، وكانت العطلة الأسبوعية من بعد ظهر الخميس إلى صباح السبت[٣].

كانت الذاكرة القوية أهم مؤهلات الصبى الدراسية التى تمكنه من الحفظ، وفى هذا الصدد يقول ابن جبير: " وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين، ويعلمون الأشعار وغيرها تنزيها لكتاب الله عن ابتذال الصبيان له بالإثبات والمحو" وقد يكون فى أكثر البلاد الملقن على حدة، والمكتب على حدة فينفصل من التلقين إلى التكتيب[٤]. وكان نظام

---

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ١، ص٥٣٩، ٥٣٨. رحيم كاظم محمد الهاشمى وعواطف محمد شنقارو: الحضارة العربية الإسلامية، ص١٤٧.

(٢) أحمد فؤاد الأهوانى: المرجع نفسه، ص٥٩. هشام نشابى: المدينة الإسلامية، ص٧٣.

(٣) أحمد فؤاد الأهوانى: التربية فى الإسلام، ص٦٥. عبد البارى محمد الطاهر: خراسان وما وراء النهر، ص١٦٤.

(٤) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ط٢، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٨، ص٢٢٦. ملكة أبيض: التربية والثقافة العربية الإسلامية، ص٢٦٠.

الكتاتيب شعبيًا بالدرجة الأولى ولم تتدخل الدولة فيه[١] إلا فى حالة واحدة وهى أن يضرب المعلم الصبيان ضربًا مبرحًا، فيقوم المحتسب بالتدخل[٢].

وإذا أتم الصبى مرحلة التعليم فى الكتاب يمتحنه المعلم فيما حفظ من القرآن وفى الكتابة، فإذا اجتاز الامتحان احتفل بالختمة ليواصل دراسته لتلقى مرحلة تعليمية أعلى من التعليم فى الكتاب أو ينقطع عن التعليم ويتجه إلى الصناعة التى يريد أن يزاولها[٣].

اشتهر من معلمى الصبية فى الصغرعدد غير قليل وذاع صيت بعضهم، ومنهم محمد ابن أبى عدى أبو صالح الأزدى السمرقندى المؤدب توفى سنة (٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م)[٤] والشيخ الأديب أبو الحسن على بن أبى طاهر المطوعى كان يؤدب على رأس سكة عجلان بسمرقند توفى بعد سنة (٤٩٥هـ/ ١١٠١م)[٥] ومن العلماء الذين اشتهروا أيضا بتعليم الصبيان الأديب أبو الفضل محمد بن عمر بن محمد الجنبذى تفقه على الإمام مسعود بن الحسين الكشانى، وكان يسكن سمرقند ويؤدب الصبيان بها، سمع منه السمعانى[٦].

وكذلك الشيخ أبو الحسن على بن الحسن بن على بن الحسن المستملى استقضى بساغرج - من قرى سمرقند على خمسة فراسخ منها - جلس لتعليم القرآن موضع أبيه فى مكتبه، توفى فى النصف الأول من

---

(١) عبد البارى محمد الطاهر: المرجع نفسه، ص١٦٣

(٢) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص١٥٩.

(٣) أحمد فؤاد الاهوانى: المرجع نفسه، ص٦٥. عبد البارى محمد الطاهر: المرجع نفسه، ١٦٤. رحيم كاظم محمد الهاشمى وعواطف محمد شنقارو: الحضارة العربية الإسلامية، ص١٤٩

(٤) المقريزى: كتاب المقفى الكبير، ص٢٢٥.

(٥) النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص٥٦٩.

(٦) ابن الأثير: اللباب فى تهذيب الأنساب، جـ١، ص٢٩٤.

(ق٦هـ/ ١٢م)[١] والشيخ أبو الحسن على بن محمد ابن عمرو المؤدب اليباركثى صاحب شرح المقامات، دخل سمرقند وحدث بها، توفى فى النصف الأول من (ق٦هـ/ ١٢م)[٢].

جرى العرف فى القرون الإسلامية الأولى أن ينتدب الأغنياء وميسورو الحال معلمين خاصين للتدريس لأبنائهم بدلاً من إرسالهم إلى الكتاتيب[٣]، حيث كان الوالد يشترك فى تخطيط وتحديد ما يتعلمه ابنه من معلمه الخاص[٤]، وكان هؤلاء المؤدبون يقومون بمثل العمل الذى يقوم به المعلم فى الكتاب، فيعلمون تلاميذهم أصول الدين وحسن الأدب وفن النظم[٥] وما يؤهلهم لتحمل الأعباء التى سينهضون بها فى المستقبل[٦].

وكان الشيخ أبو الحسن على بن إبراهيم بن على الأديب الخليل من المؤدبين المشهورين، قال النسفى: "كان مؤدب أستاذينا" توفى سنة (٤٥٣هـ/ ١٠٦١م)[٧]. والشيخ الفقيه الأديب الحجاج أبو الحسن على بن محمد بن أحمد السنى النسفى الكسبوى، دخل سمرقند وسمع بها الحديث، وكان مؤدب عمر النسفى، وتوفى سنة (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م)[٨] وكان بعض المؤدبين يقيمون فى القصور حيث خصص لهم جناح للإقامة حتى يتم إشرافهم على تربية الأولاد[٩].

---

(١) النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص٥٧٨

(٢) النسفى: المصدر نفسه، ص٥٤٨.

(٣) أحمد فؤاد الأهوانى: التربية فى الإسلام، ص١٢. حسين أمين: المدرسة المستنصرية، بغداد، ١٩٦٠م ص١٦.

(٤) أحمد جاب الله شلبى: التعليم والتربية عند المسلمين، مج١، ص٥٤.

(٥) فليب حتى: تاريخ العرب، جـ٢، ص٤٩٥.

(٦) أحمد شلبى: تاريخ التربية الإسلامية، ص٣٦.

(٧) النسفى: المصدر نفسه، ص٨٠.

(٨) النسفى: المصدر نفسه، ص٥٧٢.

(٩) سعد مرسى أحمد و سعيد إسماعيل على: تاريخ التربية والتعليم، ص ١٧٢.

ومن ثم كانت وظيفة مؤدب الخاصة مهمة، تضع من يشغلها فى مكانة عالية وتخلع عليه حلة من الجلال[١] بخلاف معلمى الكتاتيب الذين حرموا من تلك المنزلة على الرغم من تولى بعض العلماء البارزين لهذه المهنة، وكانوا موضع السخرية أحيانا[٢] وفى الأدب العربى طائفة كبيرة من النوادر المبنية على الاعتقاد بأن المعلم بليد أو أحمق بحيث ضرب به المثل، وسخر الجاحظ منهم وقال من أمثال العامة: "أحمق من معلم كتاب" وكيف يرجى العقل والرأى عند من يروح على أنثى ويغدو على طفل. وقال بعض الحكماء: "لا تستشيروا معلما، ولا راعى غنم، ولا كثير القعود مع النساء"[٣] وقال الشاعر: معلم صبيان وصاحب دره وليس له عقل بمقدار ذرة[٤].

من هذا المنطلق كانت حياة معلم الكتاب كثيرا ما يحف بها الضيق والبؤس، لأن العائد المادى كان بسيطا، وأحيانا يقوم بها المعلم دون مقابل ابتغاء مرضاة الله واقتداء برسوله[٥]. وقال البيهقى: " إذا كنت وراقا فأنت محارف وحسبك أن تكون معلما " فكان يرى أن أخذ أجرعلى التعليم يجوز رغم كراهة ذلك[٦]. ورغم كثرة الأقاويل التى تحط من مكانة معلم الكتاب، فلا يمكن إنكار الدور السامى الذى يقوم به، فهو يعد بحق أساس العملية التعليمية لما يقوم به من تنمية قدرات الصبيان على التعلم ويساعدهم للمضى قدما فى التعليم.

(١) أحمد شلبى: المرجع نفسه، ص٤٠

(٢) منير الدين أحمد: تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم، ص٥٢، ٥٣.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق فوزى عطوى، جـ١، دار صعب، بيروت، ص١٣٦.

(٤) القيسى: شرح مقامات الحريرى، مج٣، ص٣٦٤.

(٥) جروينبام: حضارة الإسلام، ص٢٧٨. شوقى ضيف: العصر العباسى الثانى، ص١١٦. محمد الحسينى عبد العزيز: الحياة العلمية فى الدولة الإسلامية، ص٣٣، ٣٤.

(٦) البيهقى: كتاب المحاسن والمساوئ، تصحيح السيد محمد بدر الدين الحلبى، جـ٢، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٠٦، ص٢١٦.

يمثل التعليم فى الكتاب المرحلة الأولى من مراحل الدراسة، حيث ينتقل الصبى بعد إكماله لهذه المرحلة إلى مرحلة تعليم أعلى.

٢ - المساجد[١]:

قامت المساجد بدورعظيم فى التربية والتعليم، حيث كانت مرحلة أعلى من الكتاتيب[٢]، وحث الإسلام على ارتياد المساجد فقال ﷺ: "إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان"[٣] فضلا عما قامت به المساجد فى مدن إقليم الصعد من دور كبير فى إذكاء الحركة الثقافية، فكانت منار العلم إذ يعد المسجد من المؤسسات الثقافية الأولى، وذلك لأن العلوم فى سنى الإسلام

---

(١) المسجد: لغة اسم لمكان السجود. والمسجد شرعا كل موضع من الأرض لقوله ﷺ "جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا" وهذا من خصائص هذه الأمة*. والمسجِد بالكسر اسم لمكان السجود، والمسجَد بالفتح جبهة الرجل حيث يصيبه السجود. والمسجد بكسر الميم الخمرة وهى الحصر الصغيرة**. ولما كان السجود أشرف أفعال الصلاة لقرب العبد من ربه اشتق اسم المكان منه فقيل مسجد، ولم يقولوا مركع. ثم إن العرف خصص المسجد بالمكان المهيأ للصلوات الخمس***. وورد المسجد والمساجد فى القرآن الكريم بلفظها ثمانيا وعشرين مرة****. والمسجد من الألفاظ الإسلامية التى لم تعرفها الجاهلية. فالاسم والمسمى جاءا مع الدين الجديد ودلا على مصلى الجماعة*****.

*الزركشى: إعلام الساجد بأحكام المساجد، تحقيق أبى مصطفى المراغى، ط٢، القاهرة، ١٩٨٢، ص٢٦، ٢٧. المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ٤، ص٢٦٣.

** اياد الصقر: الفنون الإسلامية، ص١٨٧.

*** الزركشى: المصدرنفسه، ص٢٨. اياد الصقر: المرجع نفسه، ص١٨٧.

****حسين مؤنس: المساجد، ص١١. طه الولى: المساجد فى الإسلام، ص١٤٠.

***** زين العابدين شمس الدين نجم: معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، ص٤٩٠.
عبد الرحيم غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، ص٣٨١.

(٢) عمر أحمد غنام: المؤسسات التربوية، ص١٦٦.

(٣) ابن ماجة: سنن ابن ماجة، جـ١، ص٢٦٣.

الأولى كانت علومًا دينية تشرح تعاليم الدين الجديد وتوضح أسسه وأحكامه وأهدافه، وهذه تتصل بالمسجد أوثق اتصال[١] كما قال عز من قال" فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ"[٢].

ارتبط تاريخ التربية الإسلامية بالمسجد ارتباطا وثيقا، ذلك أن وظيفته لم تقتصرعلى تأدية الصلاة فحسب، بل امتدت لتشمل مهمة التربية ورسالة التعليم[٣]، وتعددت وظائفه فضلا عن ارتباطه بكثير من الأوضاع الحضارية والتطورات والأحداث السياسية فى تاريخ الدولة الإسلامية[٤]. كان من التقاليد الاسلامية فى إنشاء أية مدينة من المدن الجديدة التى أقامها المسلمون فى المشرق والمغرب جميعًا هى اختيار مكان المسجد الجامع فى وسطها[٥].

ويعد الجامع الذى بناه القائد قتيبة بن مسلم الباهلى فى مدينة سمرقند

---

(١) أحمد جاب الله شلبى: التعليم والتربية عند المسلمين، مج١، ص٥٨. أحمد شلبى: تاريخ التربية الإسلامية، ص ٨٤

(٢) النور: آية، ٣٦، ٣٧.

(٣) أحمد رمضان: حضارة الدولة العباسية، ١٩٧٨، ص١٣٦، ١٣٥. سعد مرسى أحمد وسعيد إسماعيل على: تاريخ التربية والتعليم، ص١٧٢. سعيد أحمد حسن: أنواع المكتبات فى العالمين العربى والإسلامى، ص٧٩. غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص٤٢٥. يوسف محمود: الإنجازات العلمية فى الحضارة الإسلامية، ص٧٧

(٤) محمد ماجد خلوصى: عمارة المساجد، القاهرة، ١٩٩٨، ص١٠.

(٥) أمين مدنى: الثقافة الإسلامية وحواضرها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠، ص٢٥٥. حسن على حسن والتوم الطالب محمد: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، الكويت، ١٩٨٦، ص٣٠١ سعيد عبد الفتاح عاشور: المؤسسات العربية والإسلامية ودورها الحضارى، الفن العربى الإسلامى، جـ١، تونس، ١٩٩٤، ص٨٤.

Barthold, An Historical Geography of Iran, p50

حين فتحها[1] بمثابة محـورالحياة فيها والقلب المنـظم لكافة ألوان النشاط بين ربوعها، ومن هذا المنطلق كان المسجد أول دعامة من دعائم المجتمع الإسلامى فى سمرقند، وكـان نظام الحلقات[2] هو نظام الدراسة الممتـازة بالمساجد فى الصغد، وكـان هذا النظام تقليدًا ظلت الأجيال تتـوارثه منذ أن جلس رسول الله بالمسجد معلما[3].

أما الـنظام المتبع فى الحلقـة فهـو أن يجلس الشيخ بجـانب عمـود من أعمـدة المسجـد ويجلس حولـه طلابه على شكل حـلقة أو دائرة[4] بترتيب معين، فلكل طبـقة مكان، فيجلس المعيدون والممـتازون من الزوارعلى يمين الشيخ ويسـاره، وكانت العادة أن يحـرص كل فرد على أن يجلس قـريبا من الشـيخ ولكن بشـرط ألا يتـعـدى المكـان الذى هو أهل لـه[5]، ثم تطورت الحلقات عبر العصور وصار موضع العـالم يتميز بالسجادة التى يصلى عليها.

---

(١) الصنعانى: مـسالك الأبصـار فى ممالك الأمصار وعـجائب الأخبـار ومحاسن الأعـشار وعيـون الآثار، تحقـيق محمـد بن على بن الحسـين الاكوع الجوالـى، صنعاء، ١٩٨٥، ص١٨٣. أحمـد فؤاد متولى وهويدا مـحمد فهـمى: الجمهـوريات الإسلامية فى أسـيا الوسطى والقوقاز، ص١٣. حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية بين الفتحين العربى والتركى، دار الفكر العربى، ١٩٩٨، ص١١٦.

Knobloch, Beyond the Oxus, p24.

(٢) الحلقة: صفوف دراسـية دائمة ذات عدد محدود من الطلاب يدرس فيـها مختلف العلوم الدينيـة. بهروز رفـيعى: تعليم وتـرتيب در اسلام،ص١١٢. منيـر الدين أحمـد: تاريخ التعليم عند المسلمين، ص٥٤.

(٣) سعيـد إسماعيل على: معـاهد التربية الإسلاميـة، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٨٦، ص٢٢٤. يوسف محمود: الإنجازات العلمية فى الحضارة الإسلامية، ص٧٨.

(٤) آدم متـز: الحضـارة الإسلاميـة،جـ١، ص٢٣٢. ملكة أبيض: التربيـة والثقـافة العـربية الإسلامية، ص٢٦٦. ول ديورانت: قصة الحضارة، جـ٢، مج٤، ص١٦٨.

(٥) سعيد إسماعيل على: المرجع نفسه، ص٢٢٥.

وانقسم أصحاب الحلقات حسب أماكنهم فى المساجد إلى أصحاب الكراسى وهم القصاص وأصحاب الزوايا وهم أهل المعرفة[١]، واستمر هذا الشكل من التدريس حتى بعد إنشاء المدارس، كما أنه لا يزال معمولا به فى بعض أقطار العالم الإسلامى، ولم يصبها تغيير سوى الأمور المتعلقة بوجود إدارة لمؤسسات دائمة للتعليم[٢].

كانت المساجد مفتوحة بدورها يقصدها من يأنس فى نفسه الكفاءة لتعليم الناس، وظل العلماء يقصدون المساجد ليؤدوا هذا العمل دون انتظار من يحثهم على الذهاب، وظل الناس يلتفون حولهم ويأخذون عنهم من غير أن تتدخل الحكومات فى ذلك، ولكن بدأ تدخل الحكومة فى التعليم عندما اقترح القائمون بالأمر موضوعا معينا ليدرس، وبالأخرى عندما شيدت الحكومات معاهد تعليمية، وعينت لها المدرسين ونظمت لهم الأجور، وبهذا وذاك بدأ تدخل الحكومة فى التعليم[٣]، وكانت الحكومة قبل ذلك لا تتدخل فى الحركة التعليمية وكان يقتصر تدخلها على التأكد من عدم تعارض ما يجرى فى هذه الدراسة من مناقشات مع الدين وسياسة الدولة[٤]. وكان كل مسجد بمثابة جامعة تتألف من عدة كليات، فكان المسجد الواحد يضم من حلقات العلم العديد منها حلقات لتعليم الفقه، وهناك لتعليم الحديث وأخرى لتدريس علم الكلام[٥].

---

(١) ناجى معروف: أصالة الحضارة العربية، ص٣٥٤.

(٢) منير الدين أحمد: المرجع نفسه، ص٥٤.

(٣) أحمد شلبى: تاريخ التربية الإسلامية، ص١٩٣، ١٩٤.

(٤) عصام عبد الرءوف الفقى: تاريخ الفكر الإسلامى، دار الفكر العربى، القاهرة، ٢٠٠١، ص١٨٣، ١٨٢. هشام نشابى: المدينة الإسلامية، ص٧٦.

(٥) خالد عزب: التراث الحضارى والمعمارى للمدن الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٣، ص١١٨. شوقى ضيف: العصر العباسى الثانى، ص ١١٧، ١١٨. عبد الله الجرارى: تقدم العرب فى العلوم والصناعات، ص٢٤١.

لم تقتصر الدراسة فى المساجد على القرآن والحديث والفقه، وإنما شملت اللغة وآدابها والتاريخ والجغرافيا وغيرها من العلوم[1]. وأحب طالب العلم مجالسة العلماء، وكان عليه أن يتحلى بأدب وتواضع، ولا يضجرهم فى السؤال، ولا يناظرهم مناظرة من يريهم أنه أعلم منهم، وإنما هدفه البحث لطلب الفائدة منهم ويحسن توقير العلماء حتى يزداد به عند الله فهما فى دينه[2]، وليحذر طالب العلم أشد الحذر أن يمارى أستاذه فإن المراء شر كله، وعليه أن يحترم الشيخ فى كل الحالات حتى لو قام بتوبيخه بسبب ما فيه من نقيصة، أو كسل يعتريه، وعلى الطالب أن يلتزم السكون والوقار فى مجلس العلم[3]. كما كان لجلوس العلماء والفقهاء فى المساجد وقيامهم بمهمة التدريس شروط، منها أن يكون كل واحدٍ منهم زاجرا من نفسه، وأن لا يتصدى لما ليس بأهل له، فيضل به المستهدى ويزل به المسترشد، وجاء فى الأثر" أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على جرائيم جهنم " وينبغى للرجل إذا حمل نفسه على الفتيا أن يكون عالما بوجوه القرآن، عالما بالأسانيد الصحيحة، عالما بالسنن[4].

على أية حال ازدهرت المساجد فى إقليم الصعد وأصبحت مركزا علميا من أكبر مراكز التعليم والتدريس آنذاك، وجذبت إليها الطلاب من جميع

---

(١) أحمد شلبى: المرجع نفسه، ص٩٣. حسين أمين: المدرسة المستنصرية، ص١٣. ناجى معروف: أصالة الحضارة العربية، ط٣، بيروت، ١٩٧٥م، ص٣٥٤. عمر أحمد غنام: المؤسسات التربوية، ص١٦٦.

(٢) أبو بكر محمد بن الحسين الاجرى: أخلاق العلماء، تحقيق أحمد عبد الرحيم السايح، ط٢، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٣، ص٥١، ٥٢.

(٣) أبو عبد الله محمد بن سعيد بن رسلان: آداب طالب العلم، القاهرة، ١٩٨٨، ص٧٥، ٨١.

(٤) ابن الفراء الحنبلى: الأحكام السلطانية، تعليق محمد حامد الفقى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣، ص٢٢٦.

أنحاء العالم الإسلامى، وكانت تلك المساجد تزدان بكثرة حلقاتها العلمية التى يترأسها الفقهاء ورجال العلم للدراسة والمناظرة. ومن المساجد التى اشتهرت بحلقات العلم، المسجد الجامع فى سمرقند[١]، ومسجد البكريين[٢]، ومسجد بلال بن إسماعيل المقرئ[٣]، ومسجد سكة أبى عبد الرحمن[٤] ومسجد سكة عباد[٥]، ومسجد عز فى آخر سكة رشتوج[٦]، ومسجد العطارين[٧]، ومسجد مقابل[٨]، ومسجد المنارة[٩].

اشتهر بعض العلماء بملازمتهم للتدريس والوعظ بالمساجد وكانت لهم حلقات علم، منهم الشيخ الحاكم الإمام أبو الحسن على بن أحمد بن محمد ابن الحسن الاسترابادى من كبار أئمة الحديث بسمرقند، كان له مجلس إملاء بمسجد المنارة، توفى سنة (٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م)[١٠]. والشيخ أبو نصر سفيان ابن عبد الله بن محمد بن أحمد السرخسى المدينى كان له مجلس إملاء بمسجد المنارة، توفى سنة (٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م)[١١]. وأبو القاسم على بن

---

(١) الحريرى: مقامات الحريرى، ص٢٠٨. الذهبى: تاريخ الإسلام، جـ٣٨، ص٦٤. السمعانى: الأنساب، جـ٥، ص٢٦٠.

(٢) النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص٤٥١.

(٣) النسفى: المصدر نفسه، ص١٠٦.

(٤) النسفى: المصدر نفسه، ص٥٤٠.

(٥) النسفى: المصدر نفسه، ص٣٨٩.

(٦) النسفى: المصدر نفسه، ص٥٤٢.

(٧) السمعانى: المصدر نفسه، جـ٥، ص٤٦١. القرشى: الجواهر المضية، جـ٣، ص٣٣٦.

(٨) النسفى: المصدر نفسه، ص٣٦٧.

(٩) الاسنوى: طبقات الشافعية، جـ١، ص٢٨٧. السبكى: طبقات الشافعية الكبرى، جـ٧، ص٤٠.

(١٠) النسفى: المصدر نفسه، ص٥٤٥.

(١١) النسفى: المصدر نفسه، ص٢٣٣.

أحمد بن الحسينى بن محمد بن الفارسى، له مجلس إملاء بمسجد المنارة، توفى سنة (٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م)[١]. كما كان الحافظ أبو الحسن على بن أحمد ابن محمد بن ريحان الترمذى من كبار أئمة الحديث، سكن سمرقند، وعقد مجالس الإملاء فى مسجد رأس سكة أبى عبد الرحمن فى سكة حائط كوسكان بسمرقند، توفى سنة (٤٤٧هـ / ١٠٥٥م)[٢]. والشيخ أبو محمد عبد الخالق بن أبى مالك البلخى الصوفى، كان له مجلس إملاء بمسجد المنارة، توفى سنة (٤٤٨هـ/ ١٠٥٦)[٣]. والشيخ أبو محمد عبد الصمد بن إبراهيم بن الفضل بن أحمد بن الليث الحنظلى، كان له مجلس إملاء بمسجد سكة عباد بسمرقند، توفى(٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م)[٤].

كذلك كان أبو حفص عمر بن منصور بن أحمد بن محمد بن منصور بن موسى بن أفلح بن عمران البزاز الدهقان البخارى المعروف بابن خنب من كبار الحفاظ، حدث بمسجد المنارة بصحيح البخارى[٥]، وكانت له حلقة إقراء بمسجد سكة مقاتل، واختلف إليه الأئمة ومنهم أبو محمد عبد الرحمن ابن أحمد بن محمد بن العباس بن إسماعيل بن أحمد المقرئ الهروى الساكن سمرقند سمع بقراءته، توفى الحافظ أبو حفص سنة (٤٦١هـ/ ١٠٦٨م)[٦].

ومن أشهر العلماء الذين جلسوا للتدريس فى مساجد سمرقند، محمد بن عبد الكريم بن عبد بن عيسى بن اليمان بن تمام بن عبد الرحمن بن عبيد الله الزيركى أبو البديع الإمام الحاكم من أهل سمرقند كان يدرس ويملى

---

(١) النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص٥٤٧.

(٢) النسفى: المصدر نفسه، ص٥٤٠.

(٣) النسفى: المصدر نفسه، ص٣٨٧.

(٤) النسفى: المصدر نفسه، ص٣٨٩.

(٥) النسفى: المصدر نفسه، ص٤٧٩.

(٦) النسفى: المصدر نفسه، ص٣٦٧.

الحديث بمسجد العطارين (ت٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م)[١]. والشيخ أبو المعالى محمد بن محمد بن زيد من كبار العلماء، جلس للإملاء فى جامع سمرقند، وحضر مجلسه فحول العلماء منهم الشيخ أبو نعيم عبد الرحمن بن الحسين ابن محمد العامرى النسفى[٢]. كما عقد الشيخ أبو المعالى محمد بن محمد مجلسا للإملاء فى مسجد المنارة وحضره عبد الملك بن عبد الرحمن بن بكر ابن خالد الكرمينى، وتوفى الشيخ سنة (٤٩١هـ/ ١٠٩٧م)[٣]. كما كان أبو الحسن إدريس بن حمزة بن على الشافعى الرملى من فحول الأئمة فقيها فاضلا، استوطن سمرقند، وفوض إليه تدريس الفقه على المذهب الشافعى فى مسجد المنارة، وكان علماء سمرقند تعظمه ويهابون الكلام معه لفصاحته وفضله، توفى سنة (٥٠٤هـ/ ١١١٠م)[٤].

وكان الشيخ أبو بكر أحمد بن محمد بن الفضل الفارسى يعقد مجلسا علميا للإملاء بمسجد المنارة بسمرقند وتوفى سنة (٥٢٥هـ/ ١١٣٠م)[٥]. والشيخ أبو محمد يوسف بن على بن العباس بن أبى بكر بن صالح بن جعفر ابن محمد بن سالم النجانيكثى الاسروشنى، كان مقيما بسمرقند ويدرس للطلاب بمسجد العطارين، توفى سنة (٥٢٧هـ/ ١١٣٢م)[٦]. ومحمد بن عبد الخالق بن عبد الوهاب بن سلمة السمرقندى، كان إماما مبرزًا ورعا حسن السيرة كان له حلقة يوم الجمعة فى جامع سمرقند، وكان يحدث، قال السمعانى: سمعت منه أحاديث يسيرة، توفى سنة (٥٥١هـ/ ١١٥٦م)[٧].

---

(١) القرشى: الجواهر المضية، جـ٣، ص٣٣٦.

(٢) النسفى: المصدر نفسه، ص٣٧٠

(٣) النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص٣٨٣.

(٤) الاسنوى: طبقات الشافعية، جـ١، ص٢٨٧. السبكى: طبقات الشافعية الكبرى، جـ٧، ص٤٠، ٤١.

(٥) النسفى: المصدر نفسه، ص١٠٥.

(٦) السمعانى: الأنساب، جـ٥، ص٤٦١.

(٧) الذهبى: تاريخ الإسلام، جـ٣٨، ص٦٤. السمعانى: المصدر نفسه، جـ٥، ص١٠٤.

خلاصة القول ازدانت مساجد سمرقند بحلقات العلماء، وشهدت الكثير من حلقات أصحاب الحديث، ولم تكن هذه الحلقات تخص شخصا معينا، بل كان بإمكان أى شيخ راغب فى التحديث أن يحدث فيها، كما زخرت بحلقات الفقه والمناظرة والقراءات. ولا شك أن هذه الحلقات أسهمت إسهاما كبيراً فى التطور الفكرى والتعليمى فى العصر السلجوقى. وجديراً بالذكر أن المسجد حافظ على مكانته كمركز إشعاع علمى، رغم انتشار المدارس فى سمرقند وسائر مدن الصغد خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين، وظل للمسجد دوره الرائد وبخاصة فى العلوم الدينية التى ترتبط بطبيعة المسجد، فكان ولا زال ملتقى العلماء وطلاب العلم، وقال ابن الحاج فى هذا الصدد: "مواضع التدريس ثلاثة، البيت والمدرسة، والمسجد، وقال إن المسجد أفضلها جميعا، لأن الفائدة من التدريس أن تظهر به سنة، أو تخمد به بدعة، أو يتعلم به حكم من أحكام الدين، والمسجد خير مكان تتوفر فيه هذه الفوائد، لأنه موضع مجتمع من الناس"(١).

هكذا أقبل طلاب أهل سمرقند على العلم يحثهم فى ذلك قول رسول الله ﷺ" ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده"(٢). لذلك شهدت المساجد فى مدن الصغد نشاطا علميا واسعا، ومما يؤكده كثرة المحدثين والفقهاء والقراء وتلامذتهم. واستمرت المساجد فى نشاطها العلمى جنبا إلى جنب مع المدارس بعد نشوئها.

---

(١) ابن الحاج: مدخل الشرع الشريف على المذاهب، جـ١، القاهرة، ١٩٢٩، ص٨٥.

(٢) القرطبى: بهجة المجالس، وأنس المجالس، وشحذ الذاهن والهاجس، ص٥١، ٥٠.

٣ - المدارس[١]

كان التعليم فى مدارس مدن الصغد امتداداً لحركة التعليم فى المساجد[٢]. وتمثل المدرسة أسمى إنجازات النظام التربوى الإسلامى الذى وصلت إليه، فلم تظهر المدرسة فجأة، وإنما هى مرحلة متقدمة فى سلسلة التطورات التى مرت بها حركة التعليم، ونضوجا لفكرة راودت أصحابها عبر مالا يقل عن أربعة قرون[٣].

انتشرت المدارس نتيجة لازدحام المساجد بحلقات العلم، وكان ينبعث من كل حلقة من هذه الحلقات صوت المدرس يلقى الدرس وأصوات الطلاب

(١) لفظ المدرسة من الألفاظ المولدة المشتقة عند العرب، فقد ورد فى قولهم " هذه مدرسة النعم" أى طريق النعم وللفعل "درس" معان عديدة، فهو يأتى بمعنى: قرأ، كما فى قوله تعالى " وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ"* أى قرأوا ما فيه، ويأتى بمعنى: امحى، كقولنا: درست هذه الآثار، أى امحت . وأخذ الجاهليون مصطلح مدارس من العبرانيين من لفظ مدراش التى هى من أصل درش التى تقابل درس فى اللغة العربية. ويقصد بالمدراش درس نصوص التوراة، وشروحها وتفسيرها. وبناء على هذا يرجح أن المدرسة من المشتقات الحديثة فى صياغتها ولفظها، على أساس أن العرب لم يشتقوا قديما من الفعل درس**. والمدرسة فنيا هى مكان يدريس فيه لعدد معين من الطلاب على أيدى أساتذة مخصوصين مواد دراسية معينة ذات مستوى معين، فهى بهذا التعريف ذات اختصاص ولها منهاج محدد معين والدراسة فيها منظمة ومنتظمة***. والثابت أن التعليم لم يعرف المدرسة بمعناها الفنى والاصطلاحى إلا بعد أكثر من ثلاثة قرون من ظهور الإسلام****.

* الأعراف: ١٦٩.

** سعيد إسماعيل على: معاهد التربية الإسلامية، ص ٣٠٣، ٣٠٤.

*** سعيد إسماعيل على: المرجع نفسه، ص٣٠٤. محمد ماهر حمادة: المكتبات فى الإسلام، ص١٣٤.

**** سعيد إسماعيل على: المرجع نفسه، ص٣٠٦.

(٢) أحمد كمال الدين حلمى: السلاجقة فى التاريخ والحضارة، ص٣٧٦.

(٣) منير الدين أحمد: تاريخ التعليم عند المسلمين، ص١١.

يسألون ويناقشون، وكانت تتلاقى الأصوات المتصاعدة من الحلقات المختلفة فتحدث فى المسجد شيئا من الضجيج يمنع الصلاة والعبادة من أن تؤدى على وجهها[١]. فضلا عن أن العلوم تطورت وأصبحت هناك مواد تستدعى دراستها كثيرا من الحوار والنقاش والجدل، ومثل هذه المواد تتنافى طبيعة تدريسها مع ما يجب أن يكون عليه رواد المساجد من هدوء وجلال[٢]. ومن ناحية أخرى كان لدى الدولة الرغبة فى السيطرة على التعليم وتوجيهه للقضاء على البدع، كما كانت فى حاجة إلى عدد من الموظفين والدعاة لذا فرضت على التعليم شروطا ومواصفات ثابتة تخص المناهج[٣].

ويعتبر القرن الخامس الهجرى فاتحة عصر جديد بالنسبة لنظام التعليم والمدارس فى الإسلام[٤]، وكان العصر السلجوقى هو عصر انطلاقة الحركة المدرسية وأن السياسة التعليمية التى انتهجها السلاجقة كانت تتطلبها واقعية الظروف السياسية العامة وقتذاك، فاستهدف نظام الملك من سياسته فى نشر التعليم، غاية تخدم مصالح الدولة السلجوقية خدمة ذات نتائج مفيدة لها[٥].

وكان ذلك العصر يموج بالآراء المختلفة والأفكار المتضاربة التى كان لها

---

(١) أحمد شلبى: تاريخ التربية الإسلامية، ص٩٦. رحيم كاظم محمد الهاشمى وعواطف محمد العربى شنقارو: الحضارة العربية الإسلامية، ص١٥٢. سعد مرسى أحمد وسعيد إسماعيل: تاريخ التربية والتعليم، ص١٧٣.

(٢) أحمد شلبى: المرجع نفسه، ص٩٦. أمين مدنى: الثقافة الإسلامية وحواضرها، ص١١٠. محمد الحسينى عبد العزيز: الحياة العلمية فى الدولة الإسلامية، ص٣٥.

(٣) غازى رجب محمد: وظيفة العمارة الإسلامية استجابة الشكل إلى المضمون، جـ١، ص١٣٢، ١٣٣.

Antony Hutt and Leonard Harrow, Islamic Architercture Iran, vol.1, 1977, p20.

(٤) خالد عزب: التراث الحضارى والمعمارى، للمدن الإسلامية، ص١١٩.

(٥) حسين أمين: تاريخ العراق الاقتصادى، ص ٢٢٠، ٢٢١.

أثر كبير فى حالة الصراع الفكرى وتأجج حالة التشتت والانقسام التى عاشها المجتمع الإسلامى، ولعل ذلك ما دفع الوزير نظام الملك إلى إنشاء مدارسه التى نسبت إليه وعرفت بالنظامية[1]، لمناهضة المذاهب المخالفة ورفع لواء الدفاع عن مذهب السنة، وكان نشأتها فى الحقيقة مرتبطة بالدعوة المضادة للدعوة الشيعية[2]. بيد أن تأسيس المدارس وإعطاء الجرايات للطلاب قوبل من علماء بلاد ما وراء النهر بعدم الرضا، ويؤكد شعورهم هذا ما روى عنهم "ولقد كوشف علماء ما وراء النهر بهذا الأمر ونطقوا به لما بلغهم بناء المدارس ببغداد أقاموا مأتم العلم وقالوا كان يشتغل به أرباب الهمم العليه والأنفس الذكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به فيأتون علماء ينتفع بهم

---

(١) الشيرازى: طبقات الفقهاء، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٠، ص١٩. ابن الفوطى: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، ص٣. فؤاد عبد المعطى الصياد: دور الفرس فى بناء الحضارة الإسلامية. جوانب من الصلات الثقافية بين مصر وإيران، القاهرة، ١٩٧٥، ص٩٢. مصطفى صدرى: شرح حال رجال مشاهير نامى ايران، ص٢٥٠.

Claud Field , Persian Literature, p323.Charles Wilkinson, Nishapur some early Islamic Building and their Decoration, New York , 1986, p98. Jorgen Bak Simonsen , The Mosque Sultan Shah and Great Mughal, Denmark,1996 , p54 .Pope, A Survey of Persian Art, vol.1,p89. Sourdel ,la civilization de L,Islam Classique, p102 .Sylvıaa Matheson, Persia an Archaeological Guide ,London ,1972, p181.

(٢) حسن الباشا: دراسات فى تاريخ الدولة العباسية، القاهرة، ١٩٧٥م، ص١٣٦، ١٣٥. حسين مؤنس: تاريخ الفكر العربى، دار الرسالة للطباعة، القاهرة، ١٩٩٦، ص٢٤٤. عبد المجيد بدوى: التاريخ السياسى والفكرى، ص١٧٦. محمد السعيد جمال الدين: دولة الإسماعيلية فى إيران، ص٩٠.

Antony Hutt and Leonard Harrow , Islamic Architercture Iran ,p20. Frye, The Golden Age of Persia, p228.Sevim, Bosworth, The Seljuqs and the Khwarazmshahs History Civilization of Central Asian, vol.4,p159.

وبعلمهم، ولما جعل عليه أجرة تتطلبه النفوس الرذلة وتجعله مكسبا لحطام الدنيا، ويتزاحم عليه لا ليتحصل شرف العلم، بل لتحصيل المناصب الدنيوية السفلة الفانية، فيزول العلم برذالتهم ولا يشرفون بشرفه"[١].

وقد ذهب عدد غير قليل من المؤرخين والباحثين إلى أن نظام الملك هو أول من أسس المدارس فى الاسلام فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى[٢] إلا أن الحقيقة خلاف ذلك، فاثبتت الدراسات وجود المدارس المستقلة قبل زمن نظام الملك[٣]، فأنشأ إبراهيم طمغاج خان (٤٤٤ - ٤٦٠هـ/ ١٠٥٢ - ١٠٦٧م) مدرسة فى سمرقند[٤]، على أن نظام الملك يعد أول من رتب لطلاب المدارس والعاملين بها مرتبات وأرزاق شهرية وأمدها بالحبر والورق، ولم تكن المدارس التى أنشئت قبل ذلك تخصص لطلبتها جرايات[٥] وسرعان ما أصبحت مدارس نظام الملك وما جعل بها من

---

(١) حسين أمين: المدرسة المستنصرية، ص٢٤. سعيد إسماعيل على: معاهد التربية الإسلامية، ص٣٥٧

(٢) السيوطى: حسن المحاضرة، جـ٢، مطبعة ادارة الوطن بمصر، ١٢٩٩هـ، ص١٨٤. محمد مسفر الزهرانى: نظام الوزارة فى الدولة العباسية، ص١٩٠.

Clive Irving ,Crossroads of civilization ,p116. Laurence Lockhart ,Persian Cities ,p21. Sheila Blair ,Islamic Inscriptions ,p81

(٣) أول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة فى الإسلام أهل نيسابور إذ بنوا بها المدرسة البيهقية. المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ٤، ص١٩٢.

Hillenbrand, Madrasahs Islamic Period,vol.2, p166

(٤) Asia,vol.4,p130. Davidovich, The Karakhanids History of civilization of central Hillenbrand ,OP.cit, p166.Svat Soucek, A History of Inner Asia, , p85.

(٥) السيوطى: حسن المحاضرة، جـ٢، ص١٨٥. المالقى: الشهب اللامعة فى السياسة النافعة، تحقيق على سامى النشار، دار الثقافة، ١٩٨٤، ص٢١٩. المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ٤، ص١٩٢. أحمد حامد الصراف: عمر الخيام، ص٦٢. فليب حتى=

مساكن ورواتب للطلبة والأساتذة نموذجا يحتذى به فى سائر المدارس التى أنشئت فى إقليم الصغد ولا سيما سمرقند، وصارت مراكز إشعاع للعقيدة الإسلامية(١).

فى الواقع أن إنشاء نظام الملك للمدارس النظامية وما تبعه من انتشار المدارس فى المشرق الإسلامى، أثمر نتائج إيجابية حققت أهدافا مرجوه فى الدفاع عن الشريعة والعقيدة الإسلامية بوجه عام ضد الهجمات التى باشرها الشيعة.

فمن المدارس الكبرى التى اشتهرت بسمرقند مدرسة قثم بن العباس(٢) أنشئت قبل سنة (٤٩١هـ/ ١٠٩٧م) وقام بالتدريس فيها محمد بن محمد بن أحمد بن الحسن بن عبد الله ابن العباس بن على بن أبى طالب العلوى، والد السيد الأشرف من أهل سمرقند، تفقه على والده وبرع فى الفقه، وأقام على

=وآخرون: تاريخ العرب، جـ٢، ص٤٩٧. ناجى معروف: أصالة الحضارة العربية، ص٣٥٧.

Hillenbrand ,Madrasahs Islamic Period,vol.2 , p166.

(١) حسن الباشا: دراسات فى تاريخ الدولة العباسية، ص١٣٧.

(٢) قثم بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، وهو ابن عم رسول الله محمد ﷺ. استشهد بسمرقند سنة ٥٧هـ. البلاذرى: فتوح البلدان، ص٤٠٢. أبو جعفر الهاشمى البغدادى: كتاب المحبر رواية أبى سعيد الحسن بن الحسين السكرى، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص٤٥٥. خليفة بن خياط: كتاب الطبقات، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣، ص٤٠٤. الروحى: بلغة الظرفاء فى تاريخ الخلفاء، تحقيق عماد أحمد وآخرين، القاهرة، ٢٠٠٣، ص١٢٥. القلقشندى: قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق إبراهيم الإبيارى، دار الكتاب المصرى اللبنانى، ص١٥٥.

Edgar Knobloch ,Turkestan ,p152,153.Wilfrid Blunt ,The Golden Road to Samarkand ,p260.

التدريس ونشر العلم إلى أن مات سنة (٤٩١هـ/ ١٠٩٧م)[١] وقام بالتدريس فى هذه المدرسة أيضا أبو المعالى مسعود بن الحسن بن الحسين بن محمد الكشانى، وحدث وأملى بها، توفى سنة (٥٤٠هـ/ ١١٤٥م)[٢].

ومدرسة رأس سكة حيان فى رأس قنطرة غاتفر، قام بالتدريس فيها أبو يعقوب يوسف ابن بختيار بن محمد الساغرى، توفى سنة (٥٠٢هـ/ ١١٠٨م)[٣]. ومدرسة رأس سكة عمور شيدت قبل سنة (٥٠٥هـ / ١١١١م) وقام بالتدريس فى هذه المدرسة أبو على الحسين بن يوسف بن أبى يعقوب الخرقانى الإمام الخطيب، وكان فقيها فاضلا، سمع منه الإمام عمر ابن محمد النسفى، توفى سنة (٥٠٥هـ/ ١١١١م)[٤].

كما كانت مدارس الشيعة الاثنى عشرية ومراكزها التعليمية شأنها شأن مدارس السنة تنعم بإقبال الدارسين والمدرسين، ووجدت بسمرقند مدارس كبرى للشيعة منها مدرسة الإمامية التى أسسها محمد بن مسعود العياشى الذى عمل على نشر المذهب الشيعى فيما وراء النهر وخراسان[٥].

أما عن خصائص هذه المدارس فإنها نحت نحو التخصص رغم شمولية التعليم فى الجمهرة الكبرى من المدارس الإسلامية، إلا أن هذه المدارس شيدت عادة لمذهب معين من المذاهب الإسلامية، ولم يكن يسمح لأتباع المذاهب الاخرى بالالتحاق بها، واقتصر التدريس فيها على المذهب الذى

---

(١) القرشى: الجواهر المضية، جـ٣، ص٣١٨، ٣١٧. ناجى معروف: علماء النظاميات، ص١٠٨، ١٠٩

(٢) السمعانى: الأنساب، جـ٥، ص٧٣.

(٣) السمعانى: الأنساب، جـ٣، ص١٩٩.

(٤) السمعانى: المصدر نفسه، جـ٢، ص٣٤٨. ناجى معروف: علماء النظاميات، ص٩٣.

(٥) رسول جعفريان: الشيعة فى إيران دراسة تاريخية من البداية حتى القرن التاسع الهجرى، تعريب على هاشم الأسدى، ١٤٢٠ق/ ١٣٧٨ش، ص٢٤١.

خصصت من أجله المدرسة، مع مراعاة حظر تدريس العلوم الفلسفية، وذلك لرغبة مؤسسى هذه المدارس فى اقتصارها على العلوم الدينية واللغوية، ابتغاء مرضاة الله[١]. أما ما يتعلق بتدريس الطب فازدهرت دراسته فى البيمارستانات التى هى أقرب للمستشفيات[٢]، وأحيانا كان يدرس فى المدارس وذلك لإيمانهم بأن العلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان[٣].

كان من ضمن المؤسسات التعليمية دور السنة التى أنشئت لدراسة الحديث مستقلة عن المدرسة التى أضحت تركز على الفقه، فكان الشيوخ يعقدون فيها مجالس الحديث والذكر حيث يجلس المملى أو المحدث على دكة كى تتسنى للجميع رؤيته[٤]، ومن دور السنة المهمة بسمرقند الدار الجوزجانية[٥] ومن أشهر العلماء الذين تولوا التحديث بها الإمام الفاضل ذو الفضل حمزة الساباطى المدرس المفتى بسمرقند فى محلة اميرنوند، توفى سنة (٤٣٧هـ/ ١٠٤٥م)[٦]. كما تولى التحديث بها القاضى أبو نصر أحمد بن محمد بن حميد ابن عبد الله بن الاشعث الكشانى كان إماما فاضلا، توفى سنة (٤٤٣هـ/ ١٠٥١م)[٧]. والشيخ الفقيه الإمام على بن الحسين بن إبراهيم

---

(١) ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص٢٥٠

(٢) هشام نشابى: المدينة الإسلامية، ص٧٩، ٧٨.

(٣) ذبيح الله صفا: المرجع نفسه، جلد دوم، ص٢٥٠.

(٤) إحسان ذنوب الثامرى: الحياة العلمية زمن السامانيين، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠١، ص٥٩.

(٥) الدار الجوزجانية: دار منسوبة للأسرة الجوزجانية التى منها بعض مشايخ أبى جعفر الهنداونى استاذ أبى الليث السمرقندى الذى توفى فى القرن الرابع الهجرى، ومن المحتمل أن يكون أبو الليث درس فى تلك المدرسة. أبو الليث السمرقندى: خزانة الفقه، مج١، ص١٢.

(٦) النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص١٥٧.

(٧) السمعانى: الانساب، جـ٥، ص٧٣.

ابن إسماعيل بن أبى بكر القنطرى النسفى كتب عن أبيه وعن مشايخ نسف ومشايخ سمرقند توفى(٤٤٤هـ / ١٠٥٢م)[١].

والشيخ الإمام الزاهد الخطيب أبو محمد عبد الجبار بن أحمد الدارى، توفى سنة (٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م)[٢]. والشيخ الإمام أبو طاهر عثمان بن أبى أحمد بن اسحاق بن أحمد الواعظ الصكاك الكشانى حدث واملى فى الدار الجوزجانية سنة (٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م)[٣]. وكذلك الإمام الحافظ الخطيب عبد الجبار بن أبى طاهر المفتى بن على بن أبى الاشعث بن موسى النحوى السمرقندى كان يملى الحديث فى الدار الجوزجانية، توفى سنة (٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م)[٤].

والإمام عبد الجبار بن الحسين بن محمد الباهلى الكشانى توفى سنة (٤٩٠هـ / ١٠٩٦م)[٥]. ونصر بن إبراهيم السلطان شمس الملوك صاحب ما وراء النهر يتلقى تعليمه فى تلك الدار ثم ألقى الحديث بها، توفى سنة (٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م)[٦]. والشيخ أبو المطهر عبد الرشيد بن أحمد بن طاهر بن عوض بن على بن القاهر الطاهرى السمرقندى كتب الحديث بسمرقند، وكتب أمالى الملك نصر إبراهيم بن طمغاج خان فى الدار الجوزجانية. توفى سنة حوالى(٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م)[٧].

كما كان محمد بن محمد بن الحسين المحدث عبد الكريم بن موسى بن

---

(١) النسفى: المصدر نفسه، ص٥٧١.

(٢) النسفى: المصدر نفسه، ص٤٠٢.

(٣) النسفى: المصدر نفسه، ص٤٩٨.

(٤) النسفى: المصدر نفسه، ص٤٠٣.

(٥) النسفى: المصدر نفسه، ص٤٠٢.

(٦) الذهبى: تاريخ الاسلام، جـ٣٤، ص١٧٣.

(٧) النسفى: المصدر نفسه، ص٤٤٧.

الشيخ بن مجاهد العلامة أبو اليسر البزدوى النسفى شيخ الحنفية بما وراء النهر، وكان يدرس فى الدار الجوزجانية ويملى فيها الحديث، توفى سنة (٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م)[١]. والإمام الأديب أبو محمد عبد الجليل بن عبد الموجود ابن نصر اليدخكتى الصكاك من قرى فرغانة، كان من حلفاء الدار الجوزجانية، توفى سنة (٤٩٨هـ/ ١١٠٤م)[٢] والسيد الإمام أبو الحسن على ابن حمزة ابن على بن حمزة بن الحسين بن الحسن بن زيد بن محمد بن جعفر بن زيد بن على بن الحسين السمرقندى، كان من علماء الدار الجوزجانية، وكانت داره بالقرب منها، توفى سنة (٥١٣هـ/ ١١١٩م)[٣] كذلك كان أحمد بن عبد الله بن يوسف بن الفضل الصبغى من أهل سمرقند، إماما فقيها فاضلا، وكان معيدا فى الدار الجوزجانية وتوفى سنة (٥٢٦هـ / ١١٣١م)[٤].

لاشك أن هذه المدارس ساعدت على نشر الثقافة فى أرجاء العالم الإسلامى، ولعبت على اختلاف أنواعها دورا هاما فى تنمية وتقدم الحركة الفكرية والعلمية فى إقليم الصغد، وساهمت فى إقامة الصرح العلمى الذى تميزت به الحضارة الإسلامية خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين، كما أمدت أجهزة الدولة بالعناصر المتعلمة المثقفة والتى كان لانضمامها إلى جهاز الدولة آثاره البعيدة على دقة التنظيم،علاوة على ذلك فان مدارس مدن الصغد أمدت المدارس الأخرى فى أنحاء العالم الإسلامى بعناصر مؤهلة من العلماء والاساتذة الكبار. وكان أشهرهم أبو القاسم على بن المظفر بن حمزة بن زيد

---

(١) الذهبى: تاريخ الاسلام، جـ٣٤، ص ١٦٣، ١٦٤.

(٢) النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص٣٩٧.

(٣) النسفى: المصدر نفسه، ص ٥٦١، ٥٦٢.

(٤) التميمى: الطبقات السنية، جـ١، ص٣٧٢. ناجى معروف: علماء النظاميات، ص٩٧.

الحسينى الشريف العلوى الدبوسى (٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م)[١]، استدعاه الوزير نظام الملك للتدريس بنظامية بغداد لبراعته فى الفقه والجدل[٢]. وكان نظام الملك دقيقا فى اختيار أساتذة المدارس النظامية بحيث كانوا أعلام عصرهم فى علوم الشريعة، وكان نظام الملك يختبر معلوماتهم خلال المناظرات التى كان يعقدها فى المناسبات المختلفة، ويلقى عليهم أسئلة، فإذا لمس فى أحدهم علما وذكاء عينه فى الحال، وإذا صدر الأمر بالتعيين سار المدرس إلى الجهة التى اختير لها[٣].

وكان أبو الحسن على بن موجود بن الحسن الكشانى إماما فاضلا، ومناظرا فحلا، تولى التدريس بالمدرسة الخاقانية بمرو، توفى سنة (٥٥٧هـ/ ١١٦١م)[٤]. والشيخ حميد الدين السمرقندى كان من أشهر العلماء الذين تولوا التدريس بالمدرسة العذراوية بحارة الغرباء بدمشق[٥]، كما كان أول من درس بالمدرسة المبطورية بجبل الصالحية بدمشق[٦] وكان أيضًا

---

(١) كان الشريف العلوى لابد أن يكون على المذهب السنى من الأصل أو تحول إلى المذهب السنى قبل أن يستدعى للتدريس فى النظامية لانه لم يكن يسمح بالتدريس فيها لغير أهل السنة. عبد المجيد بدوى: التاريخ السياسى والفكرى للمذهب السنى، ص١٨١.

(٢) الذهبى: المصدر نفسه، جـ ٣٢، ص٣٢. ابن الفوطى: مجمع الاداب، مج٥، ص١٨٤.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص١٣٦، ١٣٥. نظام الملك: سياست نامه، ص٥. سليم نيسارى: تاريخ أدبيات إيران بعد ازاسلام، ص٥٠. عبد الهادى محمد رضا محبوبه: نظام الملك الحسن بن اسحق الطوسى كبير الوزراء فى الأمة الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٩، ص٣٥٦.

(٤) السمعانى: الأنساب، جـ٥، ص٧٤.

(٥) النعيمى: الدارس فى تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسنى، جـ١، ١٩٨٨م. ص٣٧٣، ٥٤٩.

(٦) النعيمى: المصدر نفسه، جـ١، ص٦٠٤

أول من درس بالمدرسة الزنجارية وتقع خارج باب تومار وباب السلامى بدمشق وظل بها إلى أن توفى سنة (٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م)[١]. كان هؤلاء العلماء أشبه اليوم بنظام الاساتذة الزائرين فى الجامعات، مما يؤكد النهضة العلمية والثقافية التى تمتعت بها مدن الصغد خلال فترة الدراسة.

أما عن مناهج التعليم فى مدارس مدن الصغد، فإن التعليم فى هذه المدارس كان فى حقيقة الأمر امتداداً لحركة التعليم فى المساجد[٢] لهذا ركز فى بدايته على العلوم الدينية ومن ثم استنفدت هذه العلوم طاقة النشاط فى المدارس، ولاشك أن هذا الاتجاة كان استجابة لروح العصر الذى أنشئت فيه[٣]، وكان منهج التعليم الذى يسير بمقتضاه الأساتذة شاملا لمجموعة العلوم الإسلامية كالقرآن الكريم والحديث ثم أصول الفقه والفقه وعلم الكلام ثم مجموع اللغة العربية كالنحو والصرف والبلاغة، علاوة على هذه المواد الدينية والأدبية كان يدرس أيضا علم الحساب والطب، وكان تدريس العلوم الادبية ومقدمات علم الحساب المحتاج إليه فى الفقه أمراً شائعا فى مدارس سمرقند. أما تدريس الطب فكان مكانه المستشفيات، ومع ذلك درس الطب فى قليل من المدارس، أما سائر العلوم العقلية فكانت مكروهة لدى علماء المسلمين يحرمون تدريسها، وكان أساتذة الفلسفة يعلمون تلاميذهم خارج المساجد والمدارس[٤].

---

(١) النعيمى: المصدر نفسه، جـ١، ص ٥٢٦، ٥٢٧.

(٢) أحمد كمال الدين حلمى: السلاجقة فى التاريخ والحضارة، ص٣٧٧. هشام نشابى: المدينة الإسلامية، ص٧٩.

Hillenbrand, Madrasahs Islamic Period,vol.2, p166

(٣) أحمد شلبى: تاريخ التربية الإسلامية، ص٩٨. حسين أمين: المدارس الإسلامية فى العصر العباسى وأثرها فى تطور التعليم، المؤرخ العربى، العدد٦، بغداد، ص٧.

(٤) ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص٢٥٠. منير الدين أحمد: تاريخ التعليم عند المسلمين، ص ٥٠، ٥١.

Murray Thomas, The Islamic Revival and Indonesion Education Asian Survey, vol.28, no.9. 1988, p899.

كانت مناهج الدراسة التى يسير بموجبها الطلبة تتدرج من السهل إلى الصعب، ومن البسيط إلى المركب، إذ تبتدئ بالعلوم الأساسية التى تعتمد على اللسان ومقوماته ثم تنتقل بالطالب إلى العلوم الانسانية المسموح بها، التى تعتمد على التفكير. وكانت حلقات الدرس منتظمة تعقد صباح كل يوم إلى قرب صلاة الظهر، حيث يتلقى فيها الطلبة دروسهم على أساتذتهم المتخصصين، ثم تستأنف فى العصارى والأماسى قبيل صلاة المغرب وبعده[١]. وبالطبع كان لكل موضوع فى المدرسة شيخ مختص بتدريسه، فكان هناك أستاذ للغة وأستاذ للتفسير وآخر للحديث، وكان المدرس يجلس على مكان عال وهو يرتدى الطيلسان، والطريقة المتبعة أن الطلاب يجلسون أمامه على شكل نصف حلقة. وكان مجال المناقشة مفتوحا أمام الطلاب ليتمكن الطالب من فهم المسائل العلمية، وكانت للمناقشة بين الأستاذ وطلابه آداب خاصة تكفل للأستاذ وقاره وهيبته ومكانته، كما تحقق للطالب طريق الفهم والتعلم[٢].

هكذا أتخذ التدريس مسارا خاصا، فظهرت التخصصات العلمية، ووضع لكل قسم منهجه الخاص وكتبه المعينة ومدرسوه المتخصصون[٣]. أما هيئة التدريس فكانت تتألف من الأتى:

* المدرسون: وهم الأساتذة المتبحرون فى العلم[٤]. وممن ذاع صيته من المدرسين فى سمرقند، محمد بن منصور بن مخلص أبو إسحاق النوقدى من قرى نسف، كان إماما زاهداً صائم الدهر من أشهر مدرسين سمرقند، توفى

---

(١) عبد الهادى محمد رضا محبوبه: نظام الملك، ص ٣٥٩، ٣٦٠.

(٢) حسين أمين: تاريخ العراق الاقتصادى، ص ٢٢٩، ٢٣٠ .

(٣) بهروز رفيعى: تعليم وترتيب در اسلام، ص١١٦.

(٤) الحسين بن رشيق المالكى: لباب المحصول فى علم الأصول، تحقيق محمد غزالى عمر جابى، جـ١، الامارات، ٢٠٠١، ص٤٥.

سنة (٤٣٤هـ/ ١٠٤٢م)[١]. ومن المدرسين البارزين على بن محمد بن حسين ابن المحدث البزدوى النسفى الزاهد صاحب التصانيف الجليلة، وكان إمام أصحاب أبى حنيفة ببلاد ما وراء النهر ويضرب به المثل فى حفظ المذهب، توفى سنة (٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م)[٢]. كما يعد أبو اليسر محمد البزدوى قاضى سمرقند، من أشهر العلماء الذين قاموا بتدريس الفقه على المذهب الحنفى، توفى سنة (٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م)[٣] ومن أشهر المدرسين أيضًا الشيخ الإمام الزاهد أبو الحسن على ابن أبى سهل بن حمزة بن منصور الزامينى، توفى سنة (٤٩٤هـ/ ١١٠٠م)[٤].

وحق على المدرس أن يحسن إلقاء الدرس وتفهيمه للحاضرين، وإن كانوا مبتدئين فلا يلقى عليهم ما لا يناسبهم من المشكلات، بل يدربهم ويأخذهم شيئا فشيئا إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق، وإن كانوا منتهين فلا يلقى عليهم الأمور الواضحة بل يدخل بهم فى مشكلات الفقه ويخوض بهم عُبَابه الزاخر[٥].

* النائب: وهو المكلف بالقيام فى تدريس الموضوع نيابه عن المدرس إذا كان مشغولا أو مريضا أو لسد الشاغر فى فترة لا يوجد فيها المدرس[٦].

---

(١) السمعانى: الأنساب، جـ٥، ص٥٣٨. علاء الدين السمرقندى: تحفة الفقهاء، تحقيق محمد زكى عبد البر، جـ١، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٥٨، ص١٩. علاء الدين السمرقندى: ميزان الأصول فى نتائج العقول، تحقيق محمد زكى عبد البر، ط٢، القاهرة، ١٩٩٧م، ص١٧. القرشى: الجواهر المضيه، جـ٣، ص٣٧٣.

(٢) الذهبى: تاريخ الإسلام، جـ٣٣، ص٩٣.

(٣) البزدوى: كتاب أصول الدين، ص١٣.

(٤) النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص٥٥٦.

(٥) السبكى: معيد النعم ومبيد النقم، ص ١٠٥، ١٠٦.

(٦) عبد الهادى محمد رضا محبوبه: نظام الملك، ص٣٥٧.

* المعيدون: وهم الذين يقومون بإعادة ما يلقيه المدرسون على الطلاب حتى يرسخ فى أذهانهم[1] وذكر السبكى" أن المعيد يجلس مع الطلاب لسماع المحاضرة، ولكن عليه قدر زائد على سماع الدرس من تفهيم بعض الطلبة، ونفعهم، وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة بعد انتهاء الشيخ من الدرس "[2].

جدير بالذكر أن صفات المدرسين وأحوالهم وأخلاق المعيدين روعيت فى مدارس سمرقند، وذلك لأن المدارس العظيمة وشهرة دور العلم ترجع إلى أحوال مدرسيها الأجلاء ومعيديها الفضلاء[3]. وكان من الطبيعى أن يكون للعلماء والمعلمين نقابة تضم جماعتهم وتنظم مهمتهم، شأنهم فى ذلك شأن بقية المهن، وكان عبء اختيار النقيب يقع على عاتق المدرسين، ولم تتدخل الدولة فى شأنهم إلا إذا وقع خلاف بين الأعضاء،على أن تدخلها كان للتوفيق والإصلاح لا للأمر واستعمال النفوذ[4].

كان الوقف هو بؤرة النهضة العلمية والفكرية، حيث أسهم فى إرساء دعائم ثقافية متنوعة من خلال تشييد المدارس وتعيين المدرسين فيها، والإنفاق على طلبة العلم والمدرسين، وشارك فيها قطاع عريض من المجتمع حكام وأمراء وأثرياء وعلماء[5]. وكان الغالب على أهل المال والثروة بما وراء النهر

(١) الحسين بن رشيق المالكى: لباب المحصول فى علم الأصول، جـ١، ص٤٥. فليب حتى وآخرون: تاريخ العرب، جـ٢، ص٤٩٨. يوسف محمود: الإنجازات العلمية فى الحضارة الإسلامية،ص٨٢.

(٢) السبكى: معيد النعم ومبيد النقم، ص١٠٨.

(٣) الحسين بن رشيق المالكى: لباب المحصول فى علم الأصول، جـ١، ص٤٥

(٤) أحمد شلبى: تاريخ التربية الإسلامية، ص٩٨. عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب، دار المعارف، ١٩٨٠، ص٦٤.

(٥) الجوينى: عتبة الكتبة، تصحيح محمد قزوينى وعباس إقبال، ١٣٢٩،ص٨٧،٨٥. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص٢٤٨. يحيى محمود ساعاتى: الوقف وبنية المكتبة العربية، السعودية، ١٩٨٨، ص١٦.

صرف أموالهم فى عمل المدارس[١] وتبارى الحكام والوجهاء فى بناء المدارس لأهل العلم ووقف أموالهم عليها[٢]، كما أوقفت أيضًا الكثير من الضياع والحوانيت والمنازل على المدارس[٣].

ولم تكن المدارس مجرد أبنية تقام، أو مجموعة من الطلاب يتلقون العلوم فيها على المدرسين، بل كان أكثرها فى شكل مؤسسات علمية راقية لها نظمها الخاصة التى تسير عليها وتقاليدها التى ترعاها[٤] والمؤكد أن معظم المدارس التى أنشئت فى مدن الصغد كانت تعتمد على الوقف كمورد أساسى ينفق منه على العملية التعليمية وإجراء الجرايات على أربابها من المدرسين والطلبة[٥] وكان أبو حفص عمر بن أحمد بن محمد بن الحسن ابن شاهين بن الفارسى السمرقندى كثير الأوقاف بسمرقند، توفى سنة (٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م)[٦] وما من شك أن أوقاف المدارس إنما تبذل للدرس ولنيل الثواب الأخروى كصدقة جارية[٧].

---

(١) ابن فضل الله العمرى: مسالك الأبصار، جـ٣، ص١٠٥١.

(٢) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص٢٢٩. أمين مدنى: الثقافة الإسلامية وحواضرها، ص١١٠

Davidovich, The Karakhanids History of civilization of central Asia,vol.4,p140

(٣) أبو نصر السمرقندى: رسوم القضاة، تحقيق محمد جاسم الحديثى، بغداد، ١٩٨٥، ص٤٢.

(٤) يحيى محمود ساعاتى: المرجع نفسه، ص١٧، ١٦.

(٥) صلاح الدين خودابخش: حضارة الإسلام، ترجمة على الخربوطلى، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧١، ص١٣٩. ناجى معروف: مدارس قبل النظامية، مطبعة المجمع العلمى العراقى ١٩٧٣، ص١٨.

Frye, The Golden Age of Persia, p229. Jorgen Bak Simonsen , The Mosque Sultan Shah and Great Mughal, p54.

(٦) السمعانى: الأنساب، جـ٣، ص ٣٩.

(٧) الراوندى: راحة الصدور وآية السرور، ص ١١٠، ١١١.

هكذا يمكننا القـول إن فترة حكـم السلاجقـة كانت فتـرة رواج للعلوم الدينية والأدبية، كما كانت فترة انطلاق للحركة المدرسية فى الإسلام. وصفوة القول لعـبت المدارس على اختـلاف أنواعهـا فى إقليم الصغـد دورًا هامًا فى تنميـة الحركة الفكرية والعلمـية فى البلدان الإسلامـية، وساهمت فى إقـامة الصرح العلمى الذى تميزت بـه الحضارة الإسلامية خـلال فترة ازدهارها. ولا شك أن تراث المدرسـة العلمى والأدبى يبـدو واضحـا وجليـا فيـمـا انتجـه مدرسـوها من مصنفات قـيمة أسـدت إلى الثقافـة خدمات جـليلة اثرت بها مكتبـاتها، وقـامت هذه المدارس بتخـريج علماء أفـاضل انتشروا فـى العالم الإسلامى وصاروا ينقلون ما تعلمـوه فى تلك المدارس، كما ارتقى العديد من خريجى تلك المدارس الوظائف السامية فى مختلف الأمصار الإسلامية.

والواقع أن إتاحة الفرصة للمسلمـين أن يقبلوا فى أى مدرسة فى بلدان العـالم الإسلامى كـان لـه الأثر المحمـود فى توحـيد الفكرالإسـلامى وزيادة الترابط الإنسانى مما أدى فى النهاية إلى احتكاك الأفكار وانصهارها جميعا فى بوتقة العلم لتبرز أفكار" مدروسة وآراء مجدية فى حقول العلم والأدب، ومن ثم ربطت هذه المدارس المسلمين برباط الثقافة[1].

٤ - الربط والخانقاوات

الربط جمع ربـاط وهو فى الأصل مصدر بمعنى مـلازمة ثغـر العدو[2] والرباط من الخيل الخـمس فما فوقـها[3]، وهو المكان الذى يربط فيـه الخيل لغرض الجهاد ومـلاحقة العدو. وأخذ معنى الرباط من قـولـه تعالى "وَأَعِدُّواْ

---

(١) حسـين أمين: المدارس الإسلامـية فى العصـر العباسى وأثرها فى تطـور التعليم، المؤرخ العربى، ص١٠.

(٢) الزركشى: إعلام الساجد بأحكام المساجد، ص٢٨.

(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جـ٤، ص٢٩٢

لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ"(١) وقولـه عز وجل" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"(٢) ومعناه جاهدوا، وقيل معناه واظبوا على مواقيت الصلاة.

يمكن القول بأن مفهوم الرباط لم يكن دائمًا واحدًا؛ ففى صدر الإسلام كان الرباط يعنى القاعدة العسكرية التى كان المسلمون يقيمون بها على الحدود لمراقبة الثغور، والدفاع عن التخوم(٣) مما يلى أرض العدو الذى يُخشى بوائقه ضد المواقع الإسلامية، وجنود هذا الرباط يكونون عادة من المتطوعة للجهاد فى سبيل الله إذا استنفروا للحرب دون أن يكون لهم أجرمقابل مرابطتهم، وإنما يتربصون للقتال ابتغاء وجه الله(٤).

لما كانت الأربطة على طرق المواصلات فجعلها ذلك مكانا لحماية الطرق من جانب، وملاذًا للعلماء والتجار وطلاب العلم يرتادونه فى تنقلاتهم بين البلدان من جانب آخر(٥)، ومن ثم أحدثت هذه الأربطة حركة ثقافية بين الجنود المرابطين حيث كان الجنود يتدارسون القرآن والحديث والفقه وغيرها من العلوم، كما كان هناك أيضًا مجالس للإملاء، ورأى بعض العلماء ضرورة الاختلاف إلى هذه الرباطات لاستكمال شخصيته.

على أن الرباط ما لبث أن تحول إلى مأوى للمتصوفين وذلك عندما

---

(١) الأنفال: آية ٦٠.

(٢) آل عمران: آية ٢٠٠.

(٣) شعبان عبد العزيز: الكتب والمكتبات، ص٣٦٤. عبد السلام أحمد نظيف: دراسات فى العمارة الإسلامية، ص٣٦.

Derek Hill and Oleg Grabar, Islamic Architecture and its Decoration , London, 1967, p34.

(٤) طه الولى: المساجد فى الإسلام، دار العلم، بيروت، ١٩٨٨م، ص١٠٥.

(٥) عبد البارى محمد الطاهر: خراسان وما وراء النهر، ص١٧٢.

توقف المد الإسلامى وبدأت قوة المسلمين فى التراجع وهيبتهم فى الانحسار والتقلص، فتغير مفهوم الرباط وأصبحت هذه الكلمة تعنى شيئًا قريبا من مفهوم الخانقاه أو الزاوية[١]، وصار الرباط يطلق على المكان الذى يرابط فيه الصوفية للعبادة والانقطاع إلى الله ومجاهدة النفس[٢] ثم صار بعد ذلك مأوى للعاجزين والنساء المطلقات أو المهجورات[٣].

هكذا أصبحت الربط تؤدى خدمات اجتماعية ودينية وثقافية كالوعظ والإقراء والتحديث والسماع والإفتاء ومنح الإجازات العلمية[٤] واتخذها العلماء أماكن للدراسة والمطالعة والكتابة والتأليف، وساعدهم على ذلك أن الواقفين أنشأوا فيها الخزائن ووقفوا فيها الكتب وعينوا عليها من يقوم بصيانتها ومناولتها ليطلع عليها العلماء والفقهاء[٥].

ولم تعد الربط تقتصر على العبادة والزهد، بل أصبحت أماكن للتأليف والتصنيف والقراءة والتثقيف، منها تؤخذ الإجازات وفيها تلقى المحاضرات، وألحقت بها مكتبات عامرة يرتادها المتصوفة فيدرسون ويتدارسون ويؤلفون ويصنفون[٦]. وصار المرابط بمعنى المجاهد فى الحرب أو مجاهد النفس بطاعة

---

(١) طه الولى: المساجد فى الإسلام، ص١٠٦.

(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جـ٤، ص٢٩٣. حسن الباشا: الألقاب الإسلامية، جـ٢، ص٤٦٧.

(٣) سعيد إسماعيل على: معاهد التربية الإسلامية، ص٥٩٥. ناجى معروف: أصالة الحضارة العربية، ط٣، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٥، ص٤٦٤.

(٤) سعيد إسماعيل على: المرجع نفسه، ص٥٩٦.

(٥) رحيم كاظم محمد الهاشمى وعواطف محمد العربى شنقارو: الحضارة العربية الإسلامية، ص١٥٨. ناجى معروف: المرجع نفسه، ص٤٦٤.

(٦) أحمد كمال الدين حلمى: السلاجقة فى التاريخ والحضارة، ص٣٧٧. حسين أمين: تاريخ العراق الاقتصادى، ص ٢٣٩، ٢٤٠.

الله. وكان لكل رباط شيخ[١] وخادم، أما الشيخ فهو الرئيس الأعلى وكان فى الغالب يعين ممن اشتهر بالتصوف والزهد، ومن أهم واجباته الإشراف والسهر على راحة النزلاء فيه[٢].

كان الغالب على أهل المال والثروة ببلاد ما وراء النهر صرف نفقاتهم وأموالهم على الرباطات ووقف الأوقاف على سبيل الجهاد ووجوه الخير، وكان بما وراء النهر زيادة على عشرة آلاف رباط[٣]. وبالإضافة إلى الرباطات التى أنشأتها الدولة وأهمها رباط الملك على طريق بخارى سمرقند، قام بتشييده شمس الملوك نصر بن إبراهيم طمغاج خان سلطان القره خانيون بسمرقند[٤]، وجد الكثير من الأربطة الأهلية ومنها رباط المربعة الذى بناه الواعظ إسحاق بن إبراهيم بن جعفر بن داود بن يوسف بن جبلة بن الحسين ابن مفيد السمرقندى المتوفى سنة (٢٥٩هـ/ ٨٧٢م)[٥]. ورباط أبى أحمد الزاهد السمرقندى فى قرية قطوان بسمرقند، نسبة إلى من قام بتشييده وتوفى نهاية القرن الرابع الهجرى[٦]. ورباط خرقان بإحدى قرى سمرقند[٧]. ورباط دشت أو رباط الغزاه[٨]، ورباط الرضراضة[٩]، ورباط كاسورغ[١٠]، ورباط

---

(١) ناجى معروف: مدارس قبل النظامية، ص٨٢.

(٢) بدر محمد فهد: تاريخ العراق فى العصر العباسى الأخير، ص٤١٧.

(٣) ابن فضل الله العمرى: مسالك الأبصار، جـ٣، ص١٠٥١.

(٤) Lambton, The Further Islamic Lands Islamic Society and civilization, the History Cambridge, vol.2,1970,p717.Michal Biran , Ilk khand, Encyclopedia Iran- of Islam, ica , vol. 12, p625.

(٥) ابن حجر العسقلانى: لسان الميزان، جـ١، ط٣، بيروت، ١٩٨٦، ص٣٤٧.

(٦) السمعانى: الأنساب، جـ٢، ص٣١٥.

(٧) النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص٣٨٢.

(٨) النسفى: المصدر نفسه، ص١٤١.

(٩) النسفى: المصدر نفسه، ص٦٤.

(١٠) النسفى: المصدر نفسه، ص٣٠٥.

نصر بن جابر بمحلة باب دستان[1]، ورباط نوكمين[2]. كما ارتبطت بعض الرباطات الجديدة بالمدن الجديدة التى يبنيها الأمراء أو يدخلونها فاتحين، كما ارتبط بناؤها بالمساجد التى تنشأ، ومن أمثلتها الجامع الذى شيد فى مدينة أسبيجاب من مدن ما وراء النهر، وكان يلحق به أربعة رباطات هى، رباط السمرقنديين، ورباط البخاريين، ورباط النخشبيين، ورباط فراتكين[3].

كان الرباط يعتمد اعتماداً كليًا على الوقف[4]. وكان أبو الحسن أعين بن جعفر بن الأشعث السمرقندى شيخا فاضلاً مكرما للفضلاء له آثار جميلة ومنها أنه بنى رباطا على طريق كش ووقف عليه الضياع، توفى سنة (٣٥٤هـ/ ٩٦٥م)[5].

هكذا كان للرباط دور" هام" فى حركة التعليم فى مدن الصغد حيث كان أماكن للدراسة وبصفة خاصة فيما يتعلق بالعلوم الأساسية، كما كان ملجأ للفقراء والصوفية والزهاد،علاوة على ذلك كان منازل للعلماء والطلاب الراحلين إلى بلاد ما وراء النهر ولاسيما سمرقند لطلب العلم أو نشره، ومكانا لتعليم القرآن والحديث والوعظ.

ولعل من المفيد عرض أهم ما ورد عن دور الربط فى الحركة التعليمية فى مدن الصغد، والعلماء الذين شاركوا فى الحركة التعليمية وأهمهم أبو سهل سعيد بن عمر بن محمد بن إبراهيم بن أبى أحمد بن أحمد بن الفضل

---

(١) النسفى: المصدر نفسه، ص٦٢٨.

(٢) النسفى: المصدر نفسه، ص١٧٠.

(٣) بارتولد: تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، ص٢٩١. عبد البارى محمد الطاهر: خراسان وما وراء النهر، ص١٧٢.

(٤) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص٢٢٩. بدر محمد فهد: تاريخ العراق فى العصر العباسى الأخير، ص٣٩٦ . يحيى محمود ساعاتى: الوقف وبنية المكتبة العربية، ص٢١.

(٥) السمعانى: المصدر نفسه، جـ٢، ص٢٧.

العطار الصفـار المحتسب الغـزنوى، قدم سمـرقند وأملى فى رباط المربع سنة (٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م)[١]. فضـلا عمـا كان للشـيخ الإمام أبى الحـسن على بن عثمـان بن إسماعيل الخـراط السمرقندى من مجـالس إملاء فى رباط المربع، وتوفى سنة (٥١٠هـ/ ١١١٦م)[٢]. وكـان للشـيخ طاهر بـن يونس بن على الفانى(٥١٩هـ/ ١١٢٥م) المقـيم بسمرقند فى رباط بيت أبى الأشـعث مجلس للإملاء[٣] وكذلك كان للفقيه مسعود بن منصور الأوشى الفرغانى(ت٥١٩هـ / ١١٢٥م) الساكـن سمرقند، مـجالس إمـلاء فى رباط حمـزة، وقال عـمر النسـفى: أن مسـعـود بن منصـور الاوشى وأهله وولده ماتـوا كلهم فى ليلة واحدة[٤]. كما كـان للسيد الواعظ أبى الصمـصام ذى الفقار بن مـحمد بن معيد الحـسنى مجالس إملاء بسمرقـند، وجلس للعامة فى رباط المربع وتوفى سنة (٥٣٦هـ/ ١١٤١م)[٥].

هكذا ساهمت الربط مساهمة فعالة فى ازدهار الحركـة الثقافية والصوفية فى إقليم الصغد، وكانت مكانا لتلقى العلوم الأسـاسية وللتأليف والتصنيف، كما كـانت تحوى خزانة كتب قـيمة. وعلاوة على ذلك كـانت منازل للعلماء الرحالين من بلد إلى بلد فى طلب العلم أو نشره.

أما الخانقاه، فيقال لـها أيضًا" الخانكاه"[٦] يقول المقريزى: " الخوانك" حدثت فى الإسلام فى حـدود الأربعمائة من سنى الهجـرة، وجعلت لتخلى

---

(١) النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص٢٠٤.

(٢) النسفى: المصدر نفسه، ص٥٦٤.

(٣) النسفى: المصدر نفسه،ص,٢٨٨

(٤) الذهبى: المشتبه فـى الرجال، جـ١، ص٣٥. السـمعانى: الأنـساب،جـ١، ص٢٢٨، ٢٢٩.

(٥) النسفى: المصدر نفسه، ص١٥٨.

(٦) كلمة فـارسية مـعناها بيت وقيل أصلها " خـونقاه " أى الموضع الذى يأكل فـيه الملك. المقريزى: المواعظ والاعـتبار، جـ٤، ص٢٧١. عبد المنـعم الحفنى: الموسوعة الصـوفية، ص٣٦٩.

الصوفيـة فيها لعبـادة الله تعالى[١]. ويقول ابن مماتى الخانقـاه مؤسسة لأيواء الزاهدين والمتعبدين من المسلمين[٢]. كما يقول قاسم غنى: كانت الخانقاه فى القرن الخامس الهجرى كأديرة الرهبان محـلاً لاستراحة المتجولين من الصوفية غالبا، وكانوا يستضيفون المسافرين فيها[٣].

إذن فالخانقـاه بيت الصوفية الـتى يعيش فيهـا المتصوفون الذين حـبسوا أنفسهم على التعبد دون أن يزاولوا أى عمل من شـئون الدنيا، معتمدين على ما يوقـفه عليهم أهل اليـسار مما يكفيـهم لمطعمـهم وملبسهم وغـير ذلك من أغراض الحياة الدنيا التى لابد منها لمعاشهم وحياتهم اليومية[٤].

انتشرت الخـانقاوات فى جميع أرجاء العالم الإسـلامى ابتداءً من القرن الخامس الهجرى، ووضعوا فيها نظامًا معـينًا للحياة، وكان من التقاليد المتبعة فى هذه الخانقاوات إقامـة حلقات السماع التى يردد فيهـا القوالون أشعاراً فى الغزل يفسرونها تفـسيراً صوفيًا[٥] وكان للخانقاوات نظام متدرج خاص على حسب تقواهم، على رأسه شيخ يسمى قطب أو شيخ الشيوخ أوشيخ السجادة دليل على تقواه، يأتى بعده المريدون والإخوان كما يوجد الخدم[٦].

---

(١) المقـريزى: المواعظ والاعتبـار، جـ٤، ص٢٧١. الموسوى: روضـات الجنات، ص٣٢. يحيى محمود ساعاتى: الوقف وبنية المكتبة العربية، ص١٠٧.

(٢) ابن مماتى: كتاب قوانـين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، مطبـعة مصر، ١٩٤٣، ص٤٥٤.

(٣) قاسم غنى: تاريخ التصوف فى الإسلام، ص٦٩٩.

(٤) طه الولى: المساجد فى الإسلام، ص٨٩.

(٥) إسعاد عبد الهادى قنديل: فنون الشعر الفارسى، ص٥٧.

(٦) عبد المنعم مـاجد: تاريخ الحضارة الإسلاميـة، ص ١٨٦، ١٨٧. محمد السعيـد جمال الدين: أعلام الشعـر الفارسى فى عصور الازدهار، ط٢، دار الهـداية للطباعة، ١٩٩٩، ص١١.

كانت الخانقاوات ـ إلى كونها مؤسسات صوفية ـ معاهد علمية تربوية[1]، يدرس فيها العلوم الأساسية كالحديث والشريعة والفقه والتفسير، وإلى جانب هذه العلوم درس فيها العلوم التطبيقية المختلفة، وآوت الصوفية والمجاهدين[2]. ويمكن تقسيم التعليم والتربية فى الخانقاهات إلى قسمين بصورة مجملة: أحدهما التعاليم الشفهية، وكانت تشتمل على النصائح والمواعظ التى يلقيها الشيخ على الطلاب، ومجالس الوعظ والتذكير التى كانت من السنن الجارية فى الخانقاوات الصوفية. وثانيهما التعاليم العملية التى هى رياضيات مختلفة مثل الصلاة والصوم والذكر والأعتكاف[3].

انتشرت الخانقاوات فى سمرقند وخدمت الحركة العلمية ومنها تلك الخانقاه التى بناها محمد بن لقمان بن نصر بن أحمد بْن أسد بن سامان أبو المظفر السمرقندى فى سكة حماد، بناها لطلبة العلم وأنفق عليها أموالاً كثيرة، ووقف عليها وعلى من يسكنها أوقافًا كثيرة، توفى سنة (٣٢٠هـ/ ٩٣٢م)[4]. وكانت معظم الخانقاوات فى سمرقند تجاور الجوامع، فكان الشيخ أبو القاسم على بن أحمد بن يوسف السمرقندى يحدث فى مسجده قبالة الخانقاه فى نهر القصارين، توفى سنة (٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م)[5]، كما وجدت الزوايا[6] فى سمرقند ومنها زاوية قثم، تلك الزاوية التى وجدت

---

(١) حسين مجيب المصرى: أثر الفرس فى حضارة الإسلام، دراسات فى الحضارة الإسلامية، مج١، القاهرة، ١٩٨٥، ص١٩٧. ذبيح الله صفا: تاريخ ادبيات در ايران، جلد دوم، ص٢٥٠.

(٢) عبد الرحيم غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، ص١٥٧.

(٣) قاسم غنى: تاريخ التصوف فى الإسلام، ص٧٠١، ٧٠٠.

(٤) ابن نقطه: تكملة الإكمال، تحقيق عبد القيوم عبد رب النبى، جـ٣، مكة، ١٩٨٩م، ص١٢٢.

(٥) النسفى: القند فى ذكر علماء سمرقند، ص٥٦٠.

(٦) الأصل فى الزاوية أنها ناحية فى المسجد يجلس عندها أحد العلماء عند إلقاء دروسه=

على قبر قثم بن العباس والتى بنيت بأموال النذور، وبالزاوية مساكن يسكنها الوارد والصادر. زارها ابن بطوطة فى رحلته إلى سمرقند[1].

ومما يؤسف له أن الخانقاوات انتهت كمنامة للفقراء والمحتاجين والدراويش الذين يتعبدون ولا يعملون مما يتنافى مع الدعوة، وصار دورها سلبيا بعد أن كانت من المؤسسات الفعالة فى المجتمع الإسلامى[2].

خلاصة القول كانت الربط والخانقاوات تعمل جنبا إلى جنب مع المدارس على رعاية شؤون الطلبة وإيوائهم، والملاحظ أن أغلب الربط والخانقاوات كانت تجاور المدارس والجوامع وبالتالى فهى تشبه إلى حد كبير مساكن الطلاب، ولم يكن بعضها يخلو من علماء يسكنون فيها مع طلابهم، علاوة على احتوائها على خزائن للكتب يلجأ إليها الطلاب للبحث والمطالعة[3].

٥ - المكتبات:

كانت المكتبات من المؤسسات التعليمية فى مدن الصغد، وكان لها أكبر الأثر فى إثراء الفكر وتقدم العلوم، وساهمت مساهمة فعالة فى توسيع نطاق

=على الناس، وكان لكل عالم مكان خاص به يداوم على الحضور فيه، وكان الناس يطلقون على هذا المكان اسم الزاوية، وإلى جانب زوايا العلماء والمدرسين فإن العالم الإسلامى عرف نوعا آخر من الزوايا التى يتخذها الطرق الصوفية مركزا لهم يتلاقون فيها مع مريدهم والراغبين فى سلوك مسلكهم. ثم ما لبثت الزاوية أن تحولت عن مهمتها العلمية وأصبحت مركزا لأصحاب الطرق الصوفية. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص٢٥١. طه الولى: المساجد فى الإسلام، ص ٩١، ٩٢.

(١) حسين مؤنس: ابن بطوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠، ص١٥١.

(٢) عبد الرحيم غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، ص١٥٧.

(٣) يحيى محمود ساعاتى: الوقف وبنية المكتبة العربية، ص١٠٨.

الحضارة الإسلامية وتغذيتها وترقيها، وكانت دائما ملتقى العلماء وعشاق المعرفة وميدانا للمناظرات والمطارحات العلمية، وتعتبر المكتبات بمحتوياتها الدعائم الأساسية التى تشاد عليها صروح العلم والثقافة والمعرفة والينابيع الفياضة التى تغذى تقدم الأمم العلمى والحضارى بماء الحياة والبقاء[١].

ويعد انتشار المكتبات وتنوعها وعدد الكتب ونسبتها إلى القراء من أعظم المعايير والمقاييس المستعملة فى الوقت الحاضر وأكثرها دقة للدلالة على رقى الأمم والشعوب ورسوخ قدمها فى مضمار الحضارة[٢]. فالمكتبات الإسلامية بهذا المعنى مرآة تنعكس فيها حياة المسلمين وتظهر فيها هذه الحياة واضحة صافية مشرقة[٣].

ظهرت المكتبات وتطورت فى الصغد نتيجة لاختراع الورق الذى يعد من أكبر النعم التى أسداها المسلمون بسمرقند إلى العالم[٤]، وكذلك لانتشار حركة التدوين والترجمة والتأليف وانتشار الوراقين والنساخ[٥]، فشغف المسلمون بالقراءة ومطالعة الكتب واقتنائها. وقال الشاعر فى هذا الصدد:

نعم الأنيس إذا خلوت كتاب　　تلهو به إن خانك الأحباب

لا مفشيا سرًا إذا استودعته　　وتفاد منه حكمة وصواب

---

(١) محمد ماهر حمادة: المكتبات فى الإسلام، ص٧.

(٢) عبد الستار الحلوجى: دراسات فى الكتب، ص٢٣. محمد ماهر حمادة: علم المكتبات والمعلومات، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦، ص٥.

(٣) محمد ماهر حمادة: المكتبات فى الإسلام، ص٢٤.

(٤) Annemarie Schimmel ,Calligraphy and Islamic Culture, p14.David Roxburch, On the Trans Mission and Reconstruction of Arabic Calligraphy Ibn al Bawwaband History , Studia Islamic , vol, 96, 2004,p41.Vladimir Minorsky ,The Turks Iran and the Caucasus in the Middle Ages , p282

(٦٥) رحيم كاظم محمد الهاشمى وعواطف شنقارو: الحضارة العربية الإسلامية، ص١٥٩.

وعبر المسلمون عن هذا الحب بتكوين المكتبات الشخصية والاحتفاء بها والمبالغة فى العناية بها والبكاء المر لفراقها وفقدانها[١]، مما يؤكد وعى العلماء وإدراكهم بأن الكتاب هو عنوان الفكر ودليله وأداة ضرورية فى العملية التعليمية لاغنى عنه للمعلم والمتعلم[٢].

فلاشك أن ازدهار الفكر الإسلامى فى مدن الصغد كان يرتبط بحرص العلماء على اقتناء الكتب، وتكوين المكتبات الخاصة فى البيوت والتى تضم مئات بل آلاف المجلدات، ليقضوا أوقاتهم بين الكتب، ويشتغلون بالاطلاع فيها والاستفادة منها[٣]. كما اهتم الأثرياء والعلماء فى سمرقند بإقامة المكتبات العامة والخاصة لمحبى العلم وطلابه، وكانوا يتباهون بما يجمعون فيها من كتب منسوخة، وينفقون عليها ببذخ شديد لتنميتها وتضمينها بالمخطوطات التى لا توجد فى أى مدينة سواها[٤]؛ وذلك لتسهيل المطالعة وتيسيرها للراغبين وبخاصة غير القادرين منهم على اقتناء الكتب بسبب غلائها وندرتها آنذاك[٥].

ولما اتسع أفق المسلمين العقلى وازدهر تقدمهم الحضارى وتنوعت اهتماماتهم فى سمرقند، زاد بنفس النسبة عدد المكتبات من أجلها، فوجدت بها معظم أنواع المكتبات: المكتبات العامة المفتوحة للجمهورعلى اختلاف أنواعه وثقافاته[٦] وكان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على المساجد[٧]، أو على

(١) شعبان عبد العزيز: الكتب والمكتبات، ص٢٦٦.

(٢) يحيى محمود ساعاتى: الوقف وبنية المكتبة العربية، ص٧٦.

(٣) عصام الدين عبد الرءوف الفقى: تاريخ الفكر الإسلامى، ص١٩٠.

(٤) خالد عزب: التراث الحضارى والمعمارى للمدن الإسلامية، ص١٢٨.

(٥) رحيم كاظم محمد الهاشمى وعواطف شنقارو: الحضارة العربية الإسلامية، ص١٥٩. ناجى معروف: أصالة الحضارة العربية، ص٤٥٦.

(٦) محمد ماهر حمادة: المكتبات فى الإسلام، ص٨٢.

(٧) آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ١، ص٣٢٢. سعيد أحمد حسن: أنواع المكتبات فى=

المدن التى سكنوها وأقاموا بها[1]، وارتبط ظهور المكتبات العامة وانتشارها بمبدأ الوقف. والوقف[2] هو الطريق الرئيسى فى تكوين النواة فى أية مكتبة، ذلك أن الواقفين تعودوا أساسا على أن يوقفوا مجموعات كاملة، وتنموا هذه المجموعات بعد ذلك بطرق أخرى كالنسخ، ولا نغفل الإهداء كمصدرهام من مصادر تزويد المكتبة الإسلامية[3].

أدرك كافة الواقفين للمدارس والربط والخانقاوات وحلقات الدرس فى المساجد أهمية الكتاب فى العملية التعليمية، وأن الاقتصار على تشييد الأبنية وتوفير جهاز للتدريس غير كاف، فاهتموا بوقف الكتب عليها لتكون وسيلة ميسرة للتحصيل والمراجعة، توفر مادة علمية يستند عليها المعلم والمتعلم فى وقت واحد، فأصبح من المعتاد وجود مكتبة فى كل مدرسة أو جامع أو رباط أو خانقاه وقفت على طلبة العلم وغيرهم[4].

انتشرت المكتبات الوقفية فى أرجاء العالم الإسلامى منذ القرن الرابع الهجرى لدرجة أنه قلما وجدت مدينة تخلو من كتب موقوفة، وأصبحت هذه المكتبات قبلة لطلاب العلم تعينهم على التزود بكل جديد، وتوفر لهم فرص مواكبة الأفكار والآراء المدونة لمؤلفين من أصقاع العالم الإسلامى[5].

=العالمين العربى والإسلامى، ص٧٩. عبد الستار الحلوجى: دراسات فى الكتب، ص٢٤. عبد النعيم محمد حسنين: دولة السلاجقة، ص١٧٢. عمر أحمد غنام: المؤسسات التربوية، ص١٦٩

(١) عبد الستار الحلوجى: المرجع نفسه، ص٢٢.

(٢) وقف الكتب معناه حبس كتب بذاتها على مكتبة معينة أوعلى طائفة معينة لا يجوز التصرف فيها بحال من الأحوال إلا فى الغرض المحدد له. شعبان عبد العزيز: المرجع نفسه، ص٣٠٩.

(٣) شعبان عبد العزيز: الكتب والمكتبات، ص٣٩.

(٤) يحيى محمود ساعاتى: الوقف وبنية المكتبة العربية، ص٢٢.

(٥) ذبيح الله صفا: تاريخ ادبيات در ايران، ص٢٥٢. يحيى محمود ساعاتى: المرجع نفسه، ص٣٣

المكتبات الخاصة: وهى المكتبات التى أنشأها العلماء الذين لهم القدرة على شراء واقتناء الكتب فى بيوتهم[١]، ورغم أن هذه المكتبات تخص أفراداً معينين فإنهم حرصوا على أن تكون للنفع العام ولخدمة طلاب العلم[٢]، وهذا النوع من المكتبات كان كثيرا جدا وواسع الانتشار فى سمرقند، إذ كان من الصعب أن تجد عالما أو أديبا دون أن تكون له مكتبة يرجع إليها فى دراسته[٣] ومن هذه المكتبات، مكتبة أحمد بن عمر بن محمد بن أحمد بن على بن لقمان أبى الليث بن شيخ الإسلام أبى حفص النسفى السمرقندى المعروف بالمجد المتوفى سنة (٥٥٢هـ/ ١١٥٧م)، كان يعير الكتب والأجزاء للسمعانى عندما كان بسمرقند سنة (٥٤٩هـ/ ١١٥٤م)[٤].

وهذا مما يرجح وجود الإعارة الخارجية فى سمرقند فى ذلك الوقت، بيد أنها لم تكن مطلقة، بل وضعت عليها قيود لتنظيم العمل وحسن سيره، وكثيراً ما كان يحدد وقت للمستعير بحيث يلزمه رد الكتاب دون تجاوز هذا الوقت[٥]، وكثيراً ما كان يطلب من المستعير أن يدفع ضمانا[٦] ولكن كان يعفى العلماء وأفاضل الناس من دفع ذلك الضمان، كما حدث مع السمعانى. وفى هذا الصدد يقول الشاعر:

---

(١) سعيد أحمد حسن: أنواع المكتبات فى العالمين العربى والإسلامى، ص٨.

(٢) رحيم كاظم محمد الهاشمى وعواطف شنقارو: الحضارة العربية الإسلامية، ص١٦٢.

(٣) أحمد شلبى: تاريخ التربية الإسلامية، ص١٨٠، ١٧٩. سعد مرسى أحمد وسعيد إسماعيل على: تاريخ التربية والتعليم، ص١٧٧. عمر أحمد غنام: المؤسسات التربوية، ص١٧٠.

(٤) تقى الدين التميمى: الطبقات السنية، جـ١، ص٤١٦. القرشى: الجواهر المضية، جـ١، ص ٢٢٦، ٢٢٧.

(٥) أحمد شلبى: تاريخ التربية الإسلامية، ص١٣٦.

(٦) السبكى: معيد النعم ومبيد النقم، ص١١١.

أيها المستعير منى كتابًا أرض لى منه ما لنفسك ترضى[1]

وكان للتعامل مع الكتب أداب"، فيقول ابن جماعة: "ولا يجعل الكتاب خزانة للكراريس أو غيرها أو مخدة أو مروحة، ولا مكبسا ولا مسندا ولا متكأ. وعن إعارة الكتب فيقول" وإعارة الكتب للطلبة والمشيخة أمر قد استحسنه الأولون والآخرون لما فيه من نشر العلم، وإفادة الناس عامة، حتى عد من صفات العلماء المحمودة. ومن آداب التعامل مع الكتب عند شرائها أو استعارتها أو إعارتها أن يتفقد المشترى أو المستعير أو مالكها بأن يتعهد أوله وآخره ووسطه وترتيب أبوابه وكراريسه ويصفح أوراقه، ولعل من الأعمال الحسنة التى كان يقوم بها بعض العلماء وقف الكتب رجاء الأجر، وللمحافظة عليها من التلف"[2].

يغلب الظن أن المكتبة أول الأمر كانت جزءًا غير مستقل عن المؤسسة نفسها كما هو الحال فى مكتبات الجوامع والمدارس والربط، فهذه كانت ملحقة بالمؤسسة التى وجدت من أجل خدمتها، أما المكتبات الكبرى فكان لها بناء مستقل خاص بها[3]، فى أبنية جميلة لتستقبل جمهور العلماء والباحثين، وكان بها حجرات متعددة تربط بينها أروقة فسيحة وثبتت الرفوف بجوار الجدران لتوضع عليها الكتب، وخصصت الأروقة للاطلاع وبعض الحجرات للنسخ، والبعض للاجتماعات، وأثثت هذه المكتبات بأثاث فخم وفرشت أرضها بالبسط والحصر حيث كان يجلس القراء[4].

---

(١) ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، فى آدب العالم والمتعلم، تحقيق عبد السلام عمر على،القاهرة، ٢٠٠٥م، ص ٢٤٣. أحمد شلبى: المرجع نفسه، ص١٣٧.

(٢) ابن جماعة: المصدر نفسه، ص٢٤٦. أبو عبد الله محمد سعيد بن رسلان: آداب طالب العلم، ص ٨٦، ٨٧.

(٣) شعبان عبد العزيز: الكتب والمكتبات، ص٣٧١. محمد ماهر حمادة: المكتبات فى الإسلام، ص ١٤٨، ١٤٩.

(٤) أحمد شلبى: المرجع نفسه، ص١٢٩. سعد مرسى أحمد و سعيد إسماعيل على: تاريخ=

وكان يعمل بالمكتبات العامة موظفون يرأسهم الخازن، وهو أمين المكتبة، وكان من أصحاب العلم والمكانة، والمترجمون والنساخ، والمجلدون، والمناولون؛ وهم الذين يرشدون القراء إلى موضع الكتب على الرفوف أو إحضار الكتب لهم من أمكنتها إلى حجرات المطالعة(١).

وكان للحسن بن أحمد السمرقندى(ت بعد ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م) حجرة فى نظامية نيسابور يسكنها، وكانت مملوءة بالأجزاء وهو قاعد وسطها، وكان يعتمد عليه فى خزانة الكتب الموضوعة فى المدرسة النظامية، وهو المسئول عن صيانتها، وكان يحضرها كل يوم من الظهر إلى العصر ويفتح باب الخزانة ويحضرها المستفيدون(٢).

حقًا لم تكن المكتبات فى إقليم الصغد لمجرد الزينة أو للتباهى والتفاخر أو لقطع الوقت وتزجية الفراغ أو إرضاء لهواية جمع الكتب، بل كانت لغاية أسمى من ذلك بكثير، فكانت مكانا لتثقيف الشعب ككل ومكانا للبحث والدرس والتأليف والتمحيص بشكل خاص، إن النشاط الهائل الذى أظهره علماء الإسلام وادباؤه عائد بالدرجة الأولى إلى حسن أستخدامهم المواد التى توفرت لديهم فى مكتباتهم(٣).

=التربية والتعليم، ص١٧٦. سعيد أحمد حسن: أنواع المكتبات فى العالمين العربى والإسلامى، ص٥٤.

(١) بهروز رفيعى: تعليم وترتيب در اسلام، ص١١٤. سعد مرسى أحمد و سعيد إسماعيل على: تاريخ التربية والتعليم، ص١٧٦. شعبان عبد العزيز: الكتب والمكتبات، ص٣٧٦.

(٢) ناجى معروف: مدارس قبل النظامية، مجلة المجمع العلمى العراقى، مج٢٢، ١٩٧٣، ص١١٧.

(٣) محمد ماهر حمادة: المكتبات فى الإسلام، ص١٩٥.

خلاصة القول كانت المكتبات فى سمرقند شعلة وضاءة ونبراسا من نور يهتدى به العلماء وطلاب العلم إبان ازدهار الحضارة الإسلامية، فالمكتبات تعكس فى تاريخها حياة المجتمع وهى فى ذات الوقت نتاج هذا المجتمع وثمرة حياته. وتمتع العلماء فى مدن الصغد خلال العصر السلجوقى بسعة اطلاعهم، وتشهد مؤلفاتهم ومصنفاتهم بالنهضة الثقافية التى تجلت آنذاك، وما عمرت به المكتبات من تلك المصنفات فى جميع فروع العلم تردد أصداء علمهم وفصاحتهم. وتعد المكتبات من هذا المنطلق من أهم المؤسسات الثقافية التى تعين على نشر المعرفة والارتقاء بمستوى الثقافة فى أرجاء العالم الإسلامى. هكذا ارتبطت حركة الثقافة فى مدن الصغد بالمكتبات.

جدير بالذكر أن مكتبات مدن الصغد دمرت عندما تعرضت للغزو المغولى سنة (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م)، وكان الموت والدمار يحل بكل مكان تطؤه أقدامهم، ولما دخلوا سمرقند كانت مدينة مزدهرة، وعندما تركوها تركوها أنقاضًا لا حياة فيها، سويت بالأرض، ولا شك أن نصيب مكتباتها من الدمار والخراب كان نصيبا موفوراً[1]. وكان تدمير المكتبات الإسلامية ونهبها على أيدى المغول نهاية مرحلة حضارية حملت فيها الأمة العربية مشعل الحضارة ومضت تضىء به للدنيا كلها طريق العلم والمعرفة، وكنتيجة طبيعية

---

(١) القرمانى: أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ، ص٢٨٦. حسن مشحون: تاريخ موسيقى ايران، تهران، ١٣٧٣، ص١٦٩. فيتالى نومكين: سمرقند، ص١٥. محمد كرد على: الإسلام والحضارة العربية، جـ١، ص٣٢١. محمد ماهر حمادة: المكتبات فى الإسلام، ص ٢٠٤.

Beatrice Manz, Central Asia in Historical Perspective, P28. Bietrich Brandenburg , Samarkand , p16 . Donald Wilber, The Architecture of Islamic Iran the Ilkhanid Period ,P3. Gavin Hambly with Alexandre Bennigsen, Central Asia,p96. John Lawton, Travel to Landmarks Samarkand and Bukhara, p42.

لتلك العاصفة التى اجتاحت الدولة الإسلامية من الشرق آوت المكتبات إلى المساجد والبيوت وتقلص دورها الحضارى وأصبحت مجرد مستودعات يتجمع فيها ما سلم من كتب التراث[1].

وصفوة القول: تضافرت المؤسسات التعليمية من كتاتيب ومساجد ومدارس وربط وخانقاوات ومكتبات على بناء صرح الحياة العلمية، وكانت نتائجها عظيمة فى إثراء الحياة الثقافية فى إقليم الصغد خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين وإيجاد طبقة من المثقفين على درجة كبيرة من النضج والتفوق العلمى وزادت مصنفاتهم ومؤلفاتهم بشكل لم يكن له مثيل من قبل.

(١) عبد الستار الحلوجى: دراسات فى الكتب والمكتبات، ص٢٥.